الفصل الثالث

تداعى البطل

- سلوى فى مهب الريح — محمود تيمور
- محجوب عبد الدايم بطل « القاهرة الجديدة » — نجيب محفوظ
- حسنين بطل « بداية ونهاية » — نجيب محفوظ

سلوى فى مهب الريح(*)

« أحس بأن شبابا يكتنف حياتى فلا أستطيع أن أرى وسط هذا الضباب المتراكم إلا اليوم الذى أعيش فيه أما الغد فليس إلى إستشفافه أو التفكير فيه من سبيل . . . وأيقنت أن ثمة حافزاً خفيا يدفعنى إلى أن أمضى قدما فى الحياة الجديدة لاحيلة لى فى تغيير أو تبديل »

سلوى (١٧٩)

إن الشؤم بذرة كامنة فى نفسى ... إنى أنفث حولى سما زعافا : وأنه ليصيبنى يوما ليودى بى .

سلوى (٣٥٤)

فى ختام الرواية — الفصل الواحد والسبعين — يقدم تيمور المشهد الأخير من مأساة سلوى . تقول لها الدادة شيرين : لقد مهدت لك كل شأن . . عولى على : ودقت بعكازتها الباب ، فدخلنا .

فإذا بى . . . أمام سنية وجها لوجه :

كانت تحمل طفلها بين يديها ، وهى تخطو فى الحجرة خطا بطيئة تعينها عليها إحدى الممرضات . فلما رأتنى شعرت بها ترتد خطوة إلى الوراء كأنها تريد أن تتوارى عنى .

وغامت الدنيا فى وجهى وكأنى لا أتبين بعينى من شىء ، ووجدتنى أستند إلى أقرب متكأ . وأخذت اعتصر جبينى بيدى . وأنا أحس قشعريرة تسرى من فرع رأسى إلى أخمص قدمى وتراءى لى شبح الدادة شيرين يقصد إلى موقفه « سنية » ويلقى فى أذنها بضع كلمات بلغت سمعى منهـا هذه الجملة :

ألم نتفق على كل شىء ؟ ما بالك : الخير فيما اتفقنا عليه :

(*) ظهرت الطبعة الأولى ، مطبعة الاستقامة ١٩٤٧ .

وعادت الدادة شيرين إلى تقول :

ألا تتقدمين لإرضاع الطفل : إنه إليك فى حاجة . . .

وسمعت الطفل يتصايح ، كأنه يتقاضانى حقه عندى . فاستأنفت الدادة شيرين تقول فى صوت واضح النبرات : ألا تحبين صديقتك سنية . . . لقد كانت فى انتظار مقدمك إليها فرفعت عينى إلى وجه سنية وسمعتها تحرك شفتيها مغمغمة ولكنى لم استبن شيئا مما تقول . ووجدتها تحاول أن تمد يدها إلى ، فأسرعت إليها وانكببت راكعة أمامها ، وأخذت يدها بين راحتى أغمرها بالقبلات ، والدمع يسح من مقلتى : . . (١) فما الذى دفعها إلى أن تركع أمامها وأن تشتغل فى بيت سنية مرضعا : ما حكايتها :

— ١ —

نشأت سلوى فى كنف جدها بالإسكندرية فى منزل عتيق لا فخامة فيه ولا أناقة فلما توفى انتقلت لتقيم مع أمها بالقاهرة .

وذهبت يوما أثناء إقامتها بالإسكندرية — لتشهد احتفال جمعية العروة الوثقى بـ كازينو سان استيفانو وهناك تعرفت بفتاة فى مثل سنها تدعى سنية وهى من أسرة مترفة وسرعان ما توطدت علاقتها بها حتى أصبحت صديقتها المخلصة . وكانت تفد إلى الإسكندرية مع أسرتها . وكان لها قصر فخم فى الرمل يشرف على البحر . وكانت تقتنى مجموعة من اللعب لا تحلم سلوى بامتلاك واحدة منها . وهكذا حددت سلوى موقفها من تلك الطبقة المترفة منذ طفولتها اليافعة . وكان الموقف هو موقف الانبهار بتلك الحياة الارستقراطية تلك الحياة التى حرمت هى منها . وكان لقاء التعارف فى سان استفانو هو بداية المنحنى المأساوى فى تاريخ حياة سلوى . إذ اندفعت — بشعورها ولاشعورها على السواء — إلى الارتباط بتلك الطبقة المترفة .

والصداقة التى ازدهرت بينها وبين سنية لم تخل من شىء من الحسد

---

(١) الرواية : ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

ران على قلبها المتلهف على تلك الحياة الرفيعة . وقد كانت تنفس عليها ما تتمتع به من آى الثراء والنعيم .

أما الزهيرى باشا فقد بدأ شعورها نحوه يشوبه الخوف والرهبة أولا ولكنها كانت مفتونة به . . . كنت أتحاشى لقاءه بيد أن رغبة خفية كانت تدعونى دائما إلى مراقبته دون أن يشعر بوجودى . . . وكانت سنية على علم بهذه الرغبة فى نفسى ، فكانت تقودنى إلى مخبأ أمين أجلس أمعها ، وأراقب الباشا وهو فى عباءة من الحرير الأبيض تزيده بهاء ومهابة ، جالس على مقعده الفسيح يطالع الصحف ويحتسى القهوة ، وينفث دخان اللفائف على نحو يثير الإعجاب . . ومرة كنت أعدو فى البهو الكبير خلف « سنية » لألحق بها فأخذ بتلابيبها ، وإذا بشخص يصدمنى لا أدرى من أين نجم ، وما هى إلا أن تبينت أنه « الباشا » نفسه ، فأصابنى من الرعب ما أشل أوصالى وأخرس لسانى ، ورأيته يحدق فىّ ببصره النفاذ ، ثم مد لى يده فى حركة رائعة ، فانحنيت عليها وقبلتها فى خشوع ومرت فى جسمى هزة كهربية حين لمست تلك اليد الضخمة التى يكسوها الشعر وتفوح منها رائحة التبغ . وبعد أن لاطفنى ومسح على رأسى مبتسما تابع سيره » (٢) وهذا الموقف يحدد جوهر العلاقة بين الزهيرى باشا وبين سلوى . هذه العلاقة التى لن يتغير جوهرها وأن تغير شكلها . علاقة السيد بالتابع وعلاقة التابع بسيده .

وسلوى تحس فى أعماقها بغرابة وضعها وبأن علاقتها بسنية لا تحكمها المساواة فى المستوى الاجتماعى أو أسلوب الحياة « . . . بالرغم مما كان يشملنى فى ذلك القصر من رفاهية وراحة ، كنت أحس أحيانا فراغا كبيراً حولى فيخيل إلىّ أنى أعيش وحيدة فى مكان واسع يغشاه الصمت المخيف (٣) ليس هذا فحسب بل إنها تشعر أن الجو المحيط بها يلفظها ولكنها لم تعبأ

---

(٢) الرواية : ص ١٣ .

(٣) الرواية : ص ٢٣ .

بشيء وسارت بقدميها إلى الطريق الوعر الذى هفت إليه نفسها وأسلمت إليه جسدها » . . وإذا اتفق وجود « الباشا » وقت حضورى لقيني بوجه متجهم وحياني تحية فاترة . . . أما مدموزيل شانتل ، فكانت تثير سخطي بمعاملتها المشبعة بالاحتقار وكنت أرى أمامى وجوها حذرة عابسة ، وأسمع حولى همسا أتبين فيه دائما أسم أمى ، فلا يروق « سنية » ما تسمع وتبالغ فى عطفها علىّ وإظهار حبها لى « وليس أدل على شعورها بالإحساس بالفواصل الطبقية من قولها « ولم أجرؤ على أدعو « سنية » إلى منزلى ، إذ وضح لى أنهم لن يأذنوا لهـا بالحضور عندى وكان هذا يملأ نفسى بالغيظ الشديد » (٤) .

. . .

ويقف بنا تيمور أمام مشهد يوضح فى دقة طبيعية العلاقة بين صلوى والباشا ، تقول سلوى : « وعجبت من نفسى كيف زرت البيت غير مرة ولم التفت إلى هذه الصور كأنى أجهل وجودها على الحائط ؟ ، . . . ولبثت أنظر إلى صورة تمثل هجوم عصبة من لصوص البحر على فرضة آمنة مطمئنة ، وكانت جموع اللصوص تدوس الأطفال فى طريقها وتحمل السبايا من النساء وكأنهن متاع » .

ولاحظت شبها غريبا بين صورة كبير اللصوص البحريين وبين الزهيرى باشا . . . أليست عيناهما متماثلتين فى الوهج وغزارة الأهداب ، وهذا الشارب الغزير ، أيستطيع أحد أن يجد فرقا بينه وبين شارب « الباشا » والد « سنية » وكان كبير اللصوص البحريين يصدر أوامره إلى أتباعه ، وقبالته امرأة بارعة الجمال تكاد تكون عارية ، وهى راكعة تتضرع إليه . . فأطلت وقفتى أمام هذه الصورة وأنا مأخوذة بروعتها ودقة رسمها وخيل إلىّ أن شفتى كبير اللصوص تتحركان وتوهمت أنى أسمعه يصيح بأحد أتباعه

---

(٤) الرواية : ص ٢٩ .

فسرت الرجفة فى أوصالى ، واستدرت حولى أتبين مكانى ، فإذا بى أرى « الزهيرى باشا » خارجا من إحدى الحجر ، وهو يخاطب « شفيق أفندى » كاتب الدائرة فى حدة وعنف . وانكمشت فى موقفى ؛ فمر بى ولم يرنى وخرج مع الكاتب إلى الحديقة ومكثت حيث أنا وقلبى ما زال دائب الخفوق ثم عدت إلى تجوالى فى الردهة أنقل العين بين الصور ، ولكنى كنت أعود دائما إلى صورة « لصوص البحر » فأقف أمامها أتأملها » (٥) .

إن هذا المشهد يحمل فى أعطافه موقف الطبقة المترفة — كما يمثلها الباشا من سلوى وموقف سلوى نفسها من تلك الطبقة . وقد حاول تيمور أن يصور العلاقة الحقيقية التى تربط الباشا بمجتمعه وبالفتاة التى هفا إليها قلبه . هذه العلاقة على مستوى المجتمع ، علاقة سيد بأتباعه ، علاقة إقطاعية تسودها السيطرة من جانب والتبعيه من جانب آخر . وكلا الوجلين ينشد اللذة والمتعة والمرأة عند كل منهما متاع موقوت يلهو بها ويستمتع .

غير أن هناك فارقا بين موقفى المرأتين ، ففى الصورة كان تضرع المرأة طلبا للرحمة وسعيا وراء الحفاظ على الشرف . . وأما سلوى فقد تهالكت على الباشا ليضمها إلى طبقته المترفة لا ليستر عرضها . وهذا الفرق فى موقف المرأتين هو الذى يكشف عن لاشعور سلوى وشعورها . فثمة صراع يدور فى نفس سلوى وعقلها بين الموقف الذى ترى من الواجب اتخاذه من الباشا وطبقته وبين الموقف الذى تجد نفسها منساقة إليه بحكم وضعها الاجتماعى . وتيمور يقدم وسيلة مادية ترمز إلى طريقين كان على سلوى أن تسلك أحدهما : أن تنظر إلى الباشا بوصفه عدواً يسترحم أو تنظر إليه بوصفه صديقا . وقد اختارت سلوى الطريق الثانى فكانت مأساة حياتها ، ولكن من الواضح أنها لم تنس الطريق الأول . وهذا مما يعمق الصراع المأساوى فى نفس سلوى . وهنا يكمن عمق الرمز الذى يضرب

---

(٥) الرواية : ص ١٤٣ .

بجذورة فى الواقع النفسى والحياتى لسلوى . إنها « تحس فى لاواعيتها أن الباشا عدو لها وليس صديقا ، فيكون أول رد فعل لها حين تراه على غير انتباه هو الانقباض لمرآه ، وللهرب منه ثم يفيق عقلها الواعى ، ويغريها بالبقاء مع الرجل والاستجابة لملاطفاته ، فكأن صورة « اللصوص البحريين » تمثل لاوعى سلوى ، وتقدم لنا الفتاة كما ترى نفسها بعيداً عن زيف التبرير العقلى وتظهرها كما كان يجب أن تكون لا كما هى » (٦)

. . .

أختارت سلوى للطريق الوعر وبدأت بمساعدة أمها التى رسمت لها معالم الطريق – تتطلع إلى اليوم الذى تغشى فيه علية القوم . فهى تعرض عن المدارس القومية ، وتختار لها أمها مدرسة لتعليم اللغة الفرنسية والرقص والغناء وهذه هى أسلحتها لغزو الطبقة المترفة . وعندما تصدت لها أم يونس مالنا والرقص والغناء ؟ هل ينفعها ذلك عند الزواج ، فقالت أمى فى توكيد: بالطبع ، لتراقص من سيخطبها حينا ، ثم تراقصه هو يوم يصبح زوجا لها فيما بعد . . . ألا تعلمين أن الرقص أصبح من مقتضيات المحافل والمجتمعات العائلية .

فتمتمت أم يونس وهى تحاول كظم غيظها :

حفظها القرآن أولا . . . ما لنا ولمدارس « الخواجات » ،

فوجدت نفسى قد انبريت فى حدة أجيب أم يونس : « لقد علمنى جدى القرآن وكفى » (٧) وأمها تزودها بنصائحها وتجربتها فى معاملة هذه الطبقة. أسلوب الانتهازية المجربة . ولكن من سوء طالع سلوى أنها كانت غريرة إذ أحبت الباشا بالفعل . ترى ماذا حدث بعد أن تصدى لها الباشا فى العزبة؟ لقد تلقت فيضا من الهدايا يغمر بيتها فـ « أرادت أن تردها لكن أمها قالت

---

(٦) د. على الراعى دراسات ... ص ٢٠٨ .

(٧) الرواية : ص ٣١ .

لها أنها ستتصرف فى الأمر بحكمتها » لاشىء . . . إذا لقيتيه فأحسنى لقياه . . . إبتسامة لطيفة . . . كلمة ظريفة . . . أهلا وسهلا « بسعادة الباشا » .

— ماذا تقصدين :

— أقصد أن نلهو ياغبية . . . . فنستفيد منه دون أن ينال منا منالا ، فشرفنا مصون لا يمس :

— هذا يقتضى أن أكون ذات وجهين .

— أرجو منك ألا تتفلسفى يا « سلوى » . . .

— لا أستطيع أن أقوم بتلك المهمة البغيضة »

— إنه يريد أن يخدعك ، فلماذا لا تسبقينه أنت فيكون هو المخدوع ، ؟ أتنكرين أنه متيم بك ، متدلة بحبك ؟

— أمى . . . ما هذا القول ؟ » (٨) .

مضت سلوى فى طريقها بعزيمة ضعيفة مهزوزة . ماذا تنتظر من فتاة تقول عن أمها وهى تخاطب حمدى : « أرجو أن تترك الحديث عن والدتى ، إنها فى واد وأنا فى واد آخر . إنى أعد نفسى فى هذه الدنيا بلا أهل » (٩) لقد مضت فى طريقها الذى أرادته هى والتى هيأته لها ظروفها الاجتماعية .

ويستمر الباشا فى تردده وهداياه لكنها تحلم بأكثر من هذا « لما لا يتقدم لخطبتى ؟ » (١٠) ولم تقطع حبل الأمل وأعرضت عن نصيحة « أم يونس » الأجدر بك يا « سلوى » أن تنشئ لك بيتا ، ولتنقضى يدك من بيت « الباشا » إنهم أناس لسنا منهم وليسوا منا . ليتركوك وشأنك لو كان جدك على قيد الحياة لزوجك « حمدى » وانتهى الأمر . . . تزوجيه يا بنى . .

---

(٨) الرواية : ص ١٩٥ .

(٩) الرواية : ص ٤٦ .

(١٠) الرواية : ص ٢٥٠ .

ودعيك من المظاهر التى طائل تحتها ، ولا تؤمن عاقبتها » (١١) إن حمدى فى نظر سلوى تجسيد لطبقتها التى تنفر منها وفى الوقت نفسه ليس فى إمكانها أن تتناسخ عنها . وهى تبقى على علاقتها به كورقة أخيرة إذا ما تركها الباشا أو قضى نحبه .

وسلوى تحاول أن تلقى تبعة مصيرها على المقادير . . فى الوقت نفسه تمضى فى علاقتها بالباشا . وهى تتساءل عن حقيقة شعورها نحو الباشا . « عسير علىّ أن أتعرف شعورى نحو « الباشا » وأن أتبينه على وجه الدقة لقد انقضى الآن نحو شهر وأنا أحيا حياة غريبة ، حياة تبدو جديدة كأنها طفرة من حال إلى حال . أتراها حقا طفرة أم هى فى الواقع نتيجة محتومة لملابسات مرت بى شيئا فشيئا بعد شئ ؟ » إنها ليست طفرة . فكل شىء خلق بقدر . إنها نتيجة محتومة بتهالكها على الطبقة المترفة كتهالك الفراش على الضوء . وهى تشعر أن الأمر خرج من يديها » . . . أضحى الأمر بينى وبينه لا غموض فيه ولا خفاء فإنى كنت أحس بأنى أضرب فى عباب جياش يجذبنى تارة قسراً إلى حيث لا أدرى . . . أحس بأن ضبابا يكتنف حياتى فلا أستطيع أن أرى وسط هذا الضباب المتراكم إلا اليوم الذى أعيش فيه . أما الغد فليس إلى استشفافه أو التفكير فيه من سبيل . . . وأيقنت أن ثمة حافزاً خفياً يدفعنى إلى أن أمضى قدما فى هذه الحياة الجديدة لا حيلة لى فى تغيير أو تبديل . . أنه قدر مكتوب على الجبين (١٢) ليس قدراً مكتوبا على الجبين بل إرادة فتاة سارت فى الطريق المحفوف بالأشواك ولعبت بالنار » إنها على وعى كامل بحقيقة العلاقة بينها وبين الباشا ومع هذا فلا تتراجع إنها تعلق على صور زفاف « سنية » و « شريف » « كلتانا لها رجل تعيش فى كنفه ولكن أى رجل هذا الذى هو لى، وأية حياة تلك التى أحياها معه ؟ » (١٣) .

---

(١١) الرواية : ص ٢٦٢ .

(١٢) الرواية : ص ٢٧٩ .

(١٣) الرواية : ص ٢٨٥ .

ويوم علمت ساوى بوفاة أم يونس قضت ليلة مضطربة « حتى استيقظت منفزعة يتراءى لها شبح هذه المرأة فى مختلف أدوار حياتها معى ، وكان يخيل إلى أن صوتها ما زال يردد على سمعى جملتها المعهودة : تزوجى أى شخص : حتم أن تتزوجى . الله ستار

وتتابعت أيام ، وثاب إلى هدوئى وأحسست أن عبئا قد انزاح عن كاهلى ، وأن الدنيا قد انفسحت أمامى ، حتى أننى حين لقيت الباشا أبديت حفاوة بالغة بمقدمه ، ولم أحجم أن ألقى بنفسى فى صدره وأنا أقول : قبلنى . . . قبلنى . فنظر إلى جذلان ، قائلا أن شيطانك اليوم غائب . ليت هذه الحال تدوم . وضمنى إليه . وطبع على خدى قبلة حافلة » (١٤) والحق أن شيطانها قد اختفى إلى الأبد . مات ومات ضميرها بموت أم يونس »

— ٢ —

وتتزوج سلوى من حمدى لا لأنها قطعت الشك باليقين فى موقفها المحير ، إنما لأن هذه الحيرة قد اشتدت وتكاثف الضباب الحالك فى طريقها ، تزوجت لا لأنها كفت عن الانتهازية والوصولية بل لأنها أمعنت فيها وتعمقت . لما أنهت إلى الباشا الخبر قال لها : «لقد أحسنت صنعا» حمدى شاب طيب ... و تلاقت نظراتنا طويلا ونحن صامتان . وكأننا اتفقنا فى عالم الصمت على كل شىء » (١٥) لقد اتخذت من حمدى ركيزة احتياطية ، تستند إليها لو انقلب بها الزمن . ومن المحتمل أن يكون زواجها من حمدى وسيلة لتهدئة لاشعورها وضميرها الذى ينتفض بين جوانبها بين لحظة وأخرى . من آيات إمعانها

---

(١٤) الرواية : ص ٢٨٦ .

(١٥) الرواية : ص ٢٨٨ .

وإيغالها فى الانتهازية اقتحامها حجرة الباشا « قبلنى ... قبلنى ياقاسى القلب ولكننى لم أمهله ، فرأيت نفسى أرتمى بين ذراعيه ، وقد وصلت بيننا قبلة عطشى بعيدة المدى ... وعادت حياتنا أوثق عرى مما كانت من قبل وشعرت بأن كلفى به يزداد على مر الأيام(١٦) هى انتهازية إذن ولكنها تفتقر إلى حصافة أمها التى نصحتها بأن تأخذ ولا تعطى لقد أحبت المسكينة الباشا بالفعل :

وعندما استقر حمدى فى مصحة حلوان مضت تقص على الباشا ماحدث من أمرها فيدعوها إلى الإقامة فى منزله وهنا شعرت كأنها وصلت إلى غاية طموحها « ونزلت جناح « سنية » من بيت « الباشا » وأنا مغمورة بعطفه وتعهده ، فبدأت الحياة التى طالما صبت إليها نفسى من زمن قديم : هذا السرير الفاخر سرير صديقتى ، إنى أتقلب فى أعطافه تسرى فى أوصالى الراحة والرضا ... هذه الأصوتة التى يزخر كل صوان منها بغوالى الثياب هؤلاء الخدم بأمرى يأتمرون ... تلك السيارات رهن إشارتى صباح مساء ... هاته الشرفة الرحبة المطلة على بستان الدار ، تلك الشرفة التى طالما جلست فيها إلى « سنية » ، لقد أصبحت الآن لى عش الغرام ... اقضى فيها مع « الباشا » أطيب الأوقات وأعذب السهرات ، كان كل شئ وفق مرامى ، إلا أمراً واحداً كان يثير حفيظتى : هذه الغمزات والإيماءات الخفية التى كنت ألحظها فيما يحيطون بى من خدم الدار ، وتلك الهمزات واللمزات التى كنت أفطن إليها فيمن يتخاطفونه من حديث »(١٧) .

ويموت الباشا اكتشفت فى عيون من حولها أنها ليست أكثر من مجرد خليلة . وخرجت شبه مطرودة :

---

(١٦) الرواية : ص ٢٩٦ .

(١٧) الرواية : ص ٣٠١ .

— ٣ —

انتهت تلك المرحلة التى قضتها مع الباشا وعاودت حياتها بجانب أمها فى منزلها العتيق . فى تلك الحارة التى تمردت عليها « شد ما هى عابسة ! منازل قديمة بالية على وشك الانهيار ، أكثرها خلو من السكان تصفر فيها الرياح ... وهذا السكون الموحش الجاثم فوق الصدور ... شد ماهو ثقيل خانق ! .. حتى الباعة الجوالون يضنون بأصواتهم على تلك الحارة المقفرة وتمثل لى فى هذا الوقت قصر « سنية » وحديقته الفيحاء ! » (١٨) .

ولكن سلوى عادت إلى الأسرة — أسرة الباشا — بعد عودة سنية وشريف بعد أن تلقيا نعى « الباشا » . إذ تقترح سنية أن تقيم سلوى معها بضعة أيام بعد أن تركت وفاة والدها فراغا كبيرا فى حياتها فلم يعد لها من أمل سوى سلوى وشريف . وهى تلخص حياتها الجديدة بقولها « وتوثقت علاقتى «بشريف» تواثنا أذكرنى علاقتى بالباشا المرحوم ، وخيل إلى أن هذه الحياة التى أحياها مع شريف ليست إلا امتدادا لتلك الحياة السالفة » (١٩) . وهى تحاول أن تخدع نفسها وتستنكر ذلتها وكأن الأمر ليس بيدها « ولما استيقظت فى غدى ، وفكرت فيما طواه الليل بينى و بين شريف ، اعترتنى هزة شديدة ونهضت فزعة من الفراش أستنكر ذلتى ... أيحدث ذلك منى على قيد خطوات من مخدع صديقتى » (٢٠) ولقد بدأت تتمرس فى طريق الغواية « وكلما أوغلت بنا الأيام ازددت جسارة وازداد هو استسلاما وطاعة » . ليس هذا فحسب بل « كان يعاودنى أحيانا هذا الزهو الأثيم وتلك العاطفة الخاطئة التى أحسها نحو « سنية » ... زهو انتصار الخيلة على الزوجة . وعاطفة تبرم المرأة من تزاحمها فى قلب رجلها (٢١) ولكنها تتمرد على دور

---

(١٨) الرواية : ص ١١٢ .
(١٩) الرواية : ص ٣٢٣ .
(٢٠) الرواية : ص ٣٢٤ .
(٢١) الرواية : ص ٣٣٠ .

الخلية وتطمع فى مرتبة أرقى الزوجة إنها تصرخ فى وجه شريف « لا أطيق أن أحيا معك فى هذه الحياة فى جنح الظلام ، لا أرضى لنفسى هذه المهانة . . طاقتها . . . وإلا فدعنى وشأنى » (٢٢) وهى تشعر فى أعماقها بأن الحل الطبيعى أن يعود « شريف » إلى زوجته وأن تبقى هى فى كنف زوجها . لكنها ليست مقتنعة بزوجها . إنه لا يرضى طموحها فى السعادة والرفاهية « أنه ليس إلا خرقة آدمية يسرع إليها البلى ! بيد أنه زوجى الذى اختارته لى الأقدار ، فكيف لى أن أتركه ؟ إن الحياة أمامى قاتمة غبراء ، غبرى يستطيع بمل تلك الشخصية وذلك الشباب أن يستوفى حظه من المتع والمباهج ، غير عابىء بشىء أليس لى أن استكمل فى هذه الدنيا سعادتى ؟ »(٢٣)

* * *

وتقف سلوى أمام المرآة وتتطلع إلى خيالها منعكسا فيها « . . . كان وجهى مكدوداً وعيناى تحيط بهما هالة سوداء ، وخيل إلى أن الغضون قد بدأت تعرف طريقها إلى قسماتى . . . وأحسست بأن الوجه الذى يطالعنى فى المرآة ما هو إلا وجه أمى ، ذلك الوجه الذى نسجت عليه حياة السهر وعبث الهوى وإدمان الخمر آثاراً لا تملك محوها المساحيق والأدهان . واختلجت اختلاجة شديدة ، وهويت على مقعد أغطى وجهى بيدى ، وأحاول أن أنحى عن خاطرى صورة تلك الأم ، وهى فى أخريات أيامها تعانى الاضمحال والتدهور فى أشنع مظاهره . واستبدت بى نوبة بكاء » (٢٤) .

وهذا المشهد من المشاهد المادية الموفقة التى كشف بها تيمور النقاب عن نفسية سلوى وطبيعتها . والمرآة هنا تقوم بوظيفتين ؛ فهى أولا تكشف عن الشعور الباطنى لسلوكها الاجتماعى الشائن ، إنها هنا فى هذا المسار ـ تقوم بالتعرية النفسية لسلوى أمام المرآة ، وثانيا ، التنبؤ بالمصير المحتوم

---

(٢٢) الرواية : ص ٣٣٨ .

(٢٣) الرواية : ص ٣٤١ .

الذى ينتظرها والذى حل بأمها فكأنها تقرأ صورة أيامها مع أمها وحياتها الصاخبة منعكسة على مرآة ذاتها فى صفحة الغيب .

وبعد انتحار شريف تنهار سلوى . تقف عارية النفس مجردة من التستر وراء القدر أو المكتوب على الجبين « إن الشؤم بذرة كامنة فى نفسى . . . إنى أنفث حولى سما زعافا ، وأنه لمصيبنى يوما ليودى بى! »

« أنا الجانية لا ريب . . . أنا التى صوبت المسدس إلى رأس « شريف » فيالينى أستطيع أن أصوب مثله إلى رأسى ، ولكنه الجبن المتغلغل فى دخيلة نفسى : » (٢٥) لم تعد تلقى تبعة تصرفاتها على الأقدار فتقول « إنها الأقدار عجيبة تلك التى ترمى بى إلى هذا المصير . . . حقا أننا لا قبل لنا بمقاومة تلك الأقدار ، ولكن ألسنا نحن مسئولين عما نقترف من ذنوب ؟ أليس فى اتهامنا الأقدار تملص من محكمة الضمير ؟ . . . لست خاطئة بالقدر الذى يبدو ، أو لست على الأصح بخاطئة وحدى . . . أليس « شريف » شريكى ؟ أليس هو الذى كان يدفع بى فى تلك الغمرات ، . . . ولكن لم ألوم المسكين وقد كان فى ذلك محدوا بعاطفته المشبوبة وحبه الفوار ؟ لا خاطىء سواى . . . يالله . . . شد ما أنا بغيضة كريهة » (٢٦) .

وبموت حمدى مريضا بالسل يتقصف آخر سند كانت ترتكز إليه « لم يعد لى فى الحياة شخص أركن إليه لقد دفنت أكرم أصحابى وأعزهم على جميعا ، وليس فيمن بقى من الناس أحد أستطيع عليه تعويلا » .

. . .

وتلجأ سلوى إلى من بقى من حطام حياتها إلى « الدادة شيرين » التى استضافتها . وهى تقول لها فى اليوم الثالث من إقامتها :

---

(٢٥) الرواية : ص ٣٣٣ .

(٢٦) الرواية : ص ٣٥٤ .

« – أسمعى يا « سلوى » . . . يجب أن تكسبى قوتك بعرق جبينك . . . يجب أن تكدحى فى الحياة وأن تجاهدى ، وأسأل الله غفران خطاياك » (٢٧) وتبدأ سلوى فى العمل « بشغل الست الست أنصاف » وتتوب سلوى توبة نصوحا . أيقنت أن لامفر من العمل ، فالتعلق بالطبقة المترفة مثل بناء بيت العنكبوت ، وإن أوهى البيوت لبيت العنكبوت . وكان ينبغى على تيمور أن يقف بنا عند هذه النهاية . لكنه لم يفعل، بل جعلها تشتغل مرضعة عند المرأة التى نافستها فى حب « شريف » ، عند « سنية » غريمتها . وكأنه بذلك يزيد من الإمعان فى شعور الاستعلاء من جانب « سنية » كما وضح فى المشهد الأخير فى الرواية والإشعار بالضعة تجاه سلوى . شعور سلوى لسنية تحت ستار الصداقة وما هى بصداقة . إنها أكذوبة الصداقة غير المتكافئة بين مستويين من الحياة بين من يملك ومن لا يملك . والموقف يشهد بأبعاد العلاقة الحقيقية بلا زيف ولا رتوش « انكببت راكعة أمامها وأخذت يدها بين راحتى أغمرها بالقبلات والدمع من مقلتى ، » فى أى مركز هذا الذى وضعت سلوى نفسها فيه .

إن خطيئتها تكمن فى أنها أعرضت عن العمل ، وآثرت عليه العبودية لطبقة المترفة . قبلت أكذوبة الصداقة غير المتكافئة نسيت أنها لم تعد أن تكون دمية تلهو بها الطبقة المترفة وتلعب . لقد أخطأت فى حق المجتمع برفضها العمل الإنسانى الشريف ثم جاء الخطأ الأخلاقى مترتبا على الخطأ الاجتماعى . « إن سلوى قد أخطأت فى حق المجتمع قبل أن تخطىء فى حق الأخلاق فتوبتها من الخطأ الأخلاقى ثم عودتها إلى الجريرة الاجتماعية أمر لا نجدها فى كثير أو قليل » (٢٨) وما الجريرة الاجتماعية هنا سوى الانسحاب من العمل الشريف للتستر وراء أكذوبة الصداقة والحب غير المتكافىء .

. . .

---

(٢٧) الرواية : ص ٣٥٥ .

(٢٨) د. على الراعى : دراسات ... ص ٢٠٢ .

وليس من شك أن تيمور قد وفق فى تصوير الصراع فى نفس سلوى بين وضعها الاجتماعى وتطلعها الطبقى . وجاءت شخصيتها ثمرة أو أفرازاً للصراع الناجم عن هذا الموقف الذى اتخذته ومأساة سلوى آية على آفة البورجوازية الصغيرة التى تتصور إمكانية قيام علاقة صداقة متكافئة مع الطبقة البورجواوية الكبيرة أو الارستقراطية . إذ من الحقائق الاجتماعية أن الأفراد ينشئون علاقاتهم الاجتماعية وفقا لإنتاجهم المادى (٢٩) . لكن غاب ذلك عن سلوى وهو يغيب عن أذهان كثيرين من ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة وهذه هى مأساتهم .

---

(٢٩) راجع المدخل : ص ١٣ .

القاهرة الجديدة (*)

« الحرية . . حظ المطلقة . ليكن لى أسوة حسنة فى ابليس . . . الرمز الكامل للكمال المطلق . . . هو التمرد الحق ، والكبرياء الحق . والثورة على جميع المبادىء »

محجوب عبد الدايم القاهرة الجديدة (٣١)

فى الفصل الخامس والأربعين من رواية القاهرة الجديدة يقدم لنا « نجيب محفوظ مشهداً نرى فيه سيدة ارستقراطية المظهر ، أنيقة الزى تسأل محجوب عبد الدائم بازدراء :

« – أأنت المدعو محجوب عبد الدائم ...

– نعم ياسيدتى أنا هو ...

فعبست حانقة ولوت شفتها اشمئزازاً وقالت بلهجة قاسية :

– هلا دللتنى على الحجرة التى ينفرد فيها زوجى بالسيدة المصونة زوجك !

فنفذ الكلام إلى قلبه فشقه شطرين . وخارت قواه ... وتحولت المرأة عنه كالمجنونة ومضت إلى باب المخدع ... فدقته براحة يدها بشدة صائحة بغضب جنونى :

– افتحا الباب ، افتح أيها الرجل وللوزير الخطير ، لقد برح الخفاء ، ورأيتك بعينى داخلا هذا الماخور . افتح وإلا حطمت الباب .

وبلغ اليأس بالشاب نهايته ... وكأنه كبر عليه أن يصدق أن مجده الذى حشد له ما حشد من قوة وفكر وبنى عليه ما بنى من آمال ، يمكن

(*) ظهرت الطبعة الأولى عام ١٩٤٥ . والطبعة التى اعتمدت عليها الطبعة الرابعة ١٩٦٢ ، الناشر مكتبة مصر .

أن يضير فى بعض الدقيقة أثراً بعد عين . وشعر بوالده يقترب منه ويسأله بصوته الذى بات تمقته مقتاً :

— ماذا هنالك ؟ ... ماذا تقول هذه السيدة ؟

ولكن لم يكلف الشاب نفسه مئونة الرد عليه ، ... ولم تكف المرأة عن دق الباب وصاحت حانقة :

— إنى أنذرك بأنك إذا لم تفتح الباب طوعاً فتحته كرها بقوة الشرطة..

فاستجمع محجوب قواه المشتتة ودنا من السيدة ، وقال لها بصوت ينم عن الرجاء :

— سيدتى . .

ولكنها لم تتركه يتم كلامه ، فتحولت إليه ولطمته على وجهه بشدة وصاحت به :

— لاتنبس بكلمة أيها القواد الخسيس ..

فتراجع محجوب مسرعاً إلى موقف أبيه وهو لايدرى به ، وانفتح عند ذلك وبرز منه قاسم بك فهمى ثم أغلقه وراءه ... وقال لزوجه بسرعة :

— هلمى معى إلى الخارج من فضلك .

ومضت المرأة نحو الباب الخارجى ، والبك فى أعقابها ، وذهبا معا .. وتمتم محجوب بصوت مبحوح :

— انتهى كل شىء ...

أعجب بها من حقيقة ! أخفق ذلك الكفاح الجبار ولما يتسلم ماهيته الجديدة ؟ ! أتصاب الحظوظ كالأعمار بالسكتة القلبية ؟ ! وقطع عليه تفكيره صوت أبيه وهو يسأل محزوناً :

ما معنى هذا يا بنى ؟ !

— وكأن هذه الجملة نفط ألقى على صدره الملتهب ، فالتفت نحوه هائجا تقدح عيناه شرراً ، وقال بحنق وحقد :

– انتهى كل شيء . انتهت الوظيفة والماهية . هلم نتسول معا(٣٠) .

لقد ابتلع الماضى الحاضر والمستقبل . رجع من رحلة الصعود بحصاد الهشيم بعد أن تداعت حياته فما هى حكايته .

– ١ –

قدم لنا « نجيب محفوظ » الشخصيات الرئيسية فى الرواية من خلال مناظرة تدور حول المبادىء « وهل هى ضرورية للإنسان أم الأولى أن يتحرر منه ؟ ! – وهم أربعة شبان اختارهم « نجيب » من طلبة الليسانس بكلية الآداب .

« قال على طه مخاطبا مأمون رضوان :

– نحن متفقان على ضرورة المبادىء للإنسان ؟ هى البوصلة التى تهتدى بها السفينة وسط المحيط . . .

فقال محجوب عبد الدايم بهدوء ورزانة :

– طظ . .

ولكن على طه لم يلق إليه بالا واستدرك مخاطبا مأمون :

– بيد أننا مختلفان فى ماهية المبادىء . .

فقال أحمد بدير وهو يهز كتفيه :

– كالعادة دائما . . !

فقال مأمون وقد تألقت عيناه بنور خاطف شأنه عند الاهتمام :

– حسبنا المبادىء التى أنشأها الله عز وجل .

فقال محجوب عبد الدائم : كالمتعجب .

– لشد ما يدهشنى أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير .

فاستمر على طه قائلا :

(٣٠) – الرواية : ص ٢٠٧ ، ٢١٠ .

ـ أؤمن بالمجتمع ، الخلية الحية للإنسانية ، فلنرع مبادئه ، على شرط ألا نقدسها لأنه ينبغي أن تتجدد جيلا بعد جيل بالعلماء والمدبرين .

تسأله أحمد بدير :

ـ ماذا يحتاج جيلنا من مبادىء ؟

فقال على بحماس :

ـ الإيمان بالعلم بدل الغيب والمجتمع بدل الجنة ، والاشتراكية بدل المنافسة . .

فعلق محجوب عبد الدايم على كلامه قائلا : طظ . . طظ . . طظ . .

تسأله أحمد بدير :

ـ وأنت يا أستاذ محجوب ما رأيك فى المناظرة ؟

فأجابه بهدوء :

ـ طظ . . .

ـ وهل طظ هذه رأى يرى ؟

فقال محجوب بهدوئه المصطنع :

ـ هى المثل الأعلى . . !

والتفت مأمون رضوان إلى على طه وقال ، وجل همه أن يذكر رأيه لا أن يجذب أحداً إلى عقيدته ؟

ـ الله فى السماء . والإسلام على الأرض . هاكم مبادئى . .

فابتسم على طه وقال بدوره كما قال محجوب عبد الدايم من قبل :

ـ لشد ما يدهشنى أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير . . !

فقهقه محجوب قائلا :

ـ طظ . .

وألقى عليهم نظرة سريعة وهم آخذون فى مسيرهم وقال :

ـ يا عجباً ! كيف تجمعنا دار واحدة ! . . . أنا رأسى هواء والأستاذ مأمون قمقم مغلق على أساطير قديمة ، وعلى طه معرض أساطير حديثة ! .

ولم يلقيا بالا إلى قوله ، لأنه طالما أعيتهما معرفة الحد بين جده وهزله ولأن مناقشته متعبة فهو يروغ من التطويق بالتهريج»(٣١) . أما أحمد بدير فعندما سئل عن رأيه قال :

« — على الصحافى أن يسمع لا أن يتكلم خاصة فى عهدنا الحاضر(٣٢) »

وكان أحمد بدير صحافياً وطالباً — .

فى هذا المشهد حدد لنا نجيب الخريطة الفكرية والسياسية الواقع السياسى فى مصر فى ثلاثينات هذا القرن . فهؤلاء الشبان يمثلون التيارات الفكرية التى كانت تمور بها الجامعة آنذاك والتى أسهمت فى صياغة تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى فيما بعد .

فهذا المشهد يفصح عن بذور الثنائية الفكرية ، أعنى الاهتمام بمشكلة العلم والإيمان بالمادة والمثال . وهنا كما رأينا — يمثل المشكلة : على طه بوصفه اشتراكياً ، ومأمون رضوان بوصفه مسلماً مؤمناً . وستكون هذه المشكلة محور اهتمامات نجيب محفوظ فى أعماله الروائية التالية . فسيظهر مأمون مرة أخرى فى الثلاثية فى شخصية عبد المنعم شوكت ويعود على طه فى شخصية « أحمد شوكت » . أما أحمد بدير فقد حدد المناخ السياسى بقوله « على الصحافى أن يسمع لا أن يتكلم . . . أما الشخصية الرابعة والتى عقد لها نجيب لواء البطولة الفردية . فهى شخصية « محجوب عبد الدايم » البطل الانتهازى . فهو يمثل الفردية الطاغية . إنه مثال طيب للبطل المتداعى ، الباحث عن اللقمة والوظيفة بأية وسيلة . . . ينشد اللذة والقوة بصرف النظر عن الوسيلة . يقبل الفرص للانقضاض عليها . أنه ميكيافيلى السلوك . وقد أضفى نجيب محفوظ على شخصية بطله من الأبعاد الفلسفية ما جعله نموذجاً بشرياً يكاد ينبض بالحياة(٣٣) وهو نموذج دال لمجتمع القاهرة المريض ، نموذج للوجه الآخر الخفى من هذا المجتمع القائم على الفواصل الطبقية .

---

(٣١) الرواية : ص ٨ — ١٠ .

(٣٢) الرواية : ص ٨ .

(٣٣) د. فاطمة موسى ، نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية ، مجلة الكاتب ، يوليو ١٩٦٨ ، ص ٨٣ .

— ٢ —

كان محجوب « صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه، وفلسفته الحرية كما يفهمها هو، وطظ أصدق شعار لها. هي التحرر من كل شيء من القيم والمثل والعقائد والمبادئ . من التراث الاجتماعي عامة !! وهو القائل لنفسه ساخرا : « إن أسرتي لن تورثني شيئا أُسعد به، فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به » وكان يقول أيضا إن أصدق معادلة في الدنيا هي : الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه . فهو يعجب بقول ديكارات « أنا أفكر فأنا موجود » . ويتفق معه على أن النفس أساس الوجود، ثم يقول بعد ذلك أن نفسه أهم ما في الوجود ! وسعادتها هي كل مايعنيه ... غايته في دنياه : اللذة والقوة، بأيسر السبل، والوسائل، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة . لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه، ولكن تهيؤه لها نما معه منذ أمد بعيد . فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة ... ثم وجد نفسه في بيئة جديدة طالبا من طلاب العلم بالجامعة ... وعثر على موضة الإلحاد والتفسيرات التي يبشر بها علماء النفس والاجتماع والدين والأخلاق والظاهرات الاجتماعية الأخرى، وسر بها سرورا شيطانيا، وجمع من مخالبها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعة لقد كان وغدا ساقطا مضمحلا فصار في غمضة عين فيلسوفا » (٣٤) على أن فلسفته تتسم بالتقية فهي فلسفة سرية « يجوز أن يدعو مأمون رضوان إلى الإسلام جهارا، ويجوز أن يعلن علي طه اعتناقه لحرية الفكر والاشتراكية، أما فلسفته فينبغي أن تظل سرية لا احتراما للرأي العام، فإن من مبادئها احتقار كل شيء ولكن لأنها لا تؤتي أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده ... لذلك احتفظ بها لنفسه، ولم يعلن منها إلا ما هو في حكم الموضة كالإلحاد وحرية الفكر إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة، فإنه ينفس عن قلبه بالمزاح والسخرية، فبدا للقوم ساخرا ماجنا لا شيطانا مجرما . ومضى

---

(٣٤) الرواية : ص ٢٥ .

فى سبيله شابا فقيرا بلا خلق »(٣٥) .

إن مأمون رضوان وعلى طه ، كليهما له موقف فكرى واضح ومحدد يستند إلى قيم مثالية ومادية وبصرف النظر عن تعارضهما حول ماهية المبادئ التى يصلح تطبيقها فى المجتمع فإنهما يحاولان أن يكون لهما دور بالنسبة للمشكلة الاجتماعية بشقيها : العدالة الاجتماعية ، والعدالة السياسية . وهنا تكمن الرغبة لديهما فى الانتماء . أما هو — محجوب — فليس كمثله شئ فى الانحطاط والميكيافيلية . إنه يعلم خطورة الأفكار التقدمية التى تمور فى عقل على طه بالنسبة للمجتمع وللتغير الاجتماعى . فما هو بغافل عن ذلك إنه يعلم مدى إخلاص على لمجتمعه « ومن عجب حقا أنه وعلى طه نقيضان ، ومع ذلك فلا بعد أن يقذف بهما المجتمع معا إلى أعماق السجون غير مفرق بين عابده والكافر به »(٣٦) وقد استوجب هذا منه مزيدا من المداجاة والمداهنة والنفاق الاجتماعى .

— ٣ —

تبدأ مأساة محجوب عندما يقعد أبوه من العمل لإصابته بالشلل . وقد كان موظفاً بسيطا بشركة الألبان اليونانية بالقناطر ، مرتبه ثمانية جنيهات بعد خدمة خمسة وعشرين عاما وكان الأب يبذل لمحجوب من مرتبه ثلاثة جنيهات شهرياً أثناء السنة الدراسية فنهضت بالضروريات من مسكن ومأكل وملبس ، ورضى بها الشاب رضا المتمرد المغلوب على أمره وجعل يرمق ملاذ القاهرة من بعيد ، ويسترق السمع إلى أخبارها بنهم وألم . والواقع أن الشلل العضوى الذى أصاب الأب كان فى جوهره شللا اقتصاديا أصاب الأسرة جميعا فلم يكن حزن محجوب « حزنا على والده بقدر ما كان إشفاقا على الرجل الذى ينفق عليه ثلاث جنيهات كل شهر »(٣٧) .

---

(٣٥) الرواية : ص ٢٦ .

(٣٦) الرواية: ص ١٦٩ .

(٣٧) الرواية : ص ٣٨ .

كان على محجوب أن يعيش بجنيه واحد لمدة أربعة أشهر ، إلى أن يحصل على الليسانس . ومن عجب أن اليأس لم يطرق نفسه فأمله لا يزال معلقا بخيط لم يقطع بعد . ولكن هذا الأمل لم يمنع محجوب من التمرد ، تساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر : لماذا قدر له أن يولد فى ذلك البيت ؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان و الفقر والدمامة ؟ (سنسمع هذا التذمر فيما بعد من حسنين فى بداية ونهاية وحميدة فى زقاق العدم « زقاق المدق » والدلالة واحدة : التمرد على الواقع الهابـط والتطلع إلى طبقة أعلى) أليس من الظلم أن يرسف فى هذه الأغلال قبل أن يرى النور ؟ ولو كان ابن حميدس بك مثلا لكان له جسم غير هذا الجسم ووجه غير هذا الوجه وحظ غير هذا الحظ ، ولذاق الطمأنينة والسلام ولاقتنى سيارة . وتفكر محزونا فى الفقر الذى يتربص به ، فرآه يبسم اليه هازئا كأنما يقول له : « ما استطعت دفعى بثلاثة جنيهات ، فهـل تدفعنى غدا بجنيه واحد أين يسكن ؟ .. كيف يأكل ؟ .. وهز رأسه فى كمد . ولكنه لم يشعر بخور أو تخاذل كان عظيم الثقة بنفسه ، جريئاً إلى أقصى حد ، بيد أنه تميز غيظا وحنقا »(٣٨) ولكن « لا يسأل إخوانه أن يطعموه؟... الكرامة ؟ ! .. الكبرياء ؟ ؟ . تبا له لا تزال فلسفته كلاما وهراء ، متى يصير رجلا حقا ؟ متى يفرط فى كرامته وعرضه وكأنه ينفض ترابا من حذائه ؟ ! » (٣٩) ولقد كره أن يطلع مخلوقا على أحزانه . وإن الصداقة احدى الفضائل التى كفر بها؟! إن احمد بدير ومأمون رضوان وعلى طه زملاء فقط جمعته بهم الدراسة . وإن كان نقاش مأمون يستهويه وروح على تجذبه إليه إلا أنه مع ذلك يحسدها ويمقتها ولا يتردد عن إهانتها لو وجد فى ذلك نفعا .

اضطربت حياته وعجز عن شراء كتاب اللغة اللاتينية وأوشك أن يدركه القنوط لولا أن ذكر قريب والدته أحمد حميدس . فقصد بيته بالزمالك . « ودخل حجرة كبيرة فاخرة الأثاث لم يسبق أن دخل بيتا كهذا البيت أو وجد فى حجرة كهذه الحجرة فألقى على ما حوله نظرة متفحصة مقرونة بالدهشة

---

(٣٨) الرواية : ص ٤١ .

(٣٩) الرواية : ص ٥٢ .

والإعجاب والحسرة وتطلع بناظريه من نافذة قريبة فرأى ناحية من الحديقة حافلة بآى الجمال والعطر ... يالها من حجرة نفيسة » . ألا يمكن أن يملك يوما قصراً كهذا القصر يقصد إليه ذوو الحاجات ؟ (٤٠) (هذه التطلعات الطبقية ستفصح عن نفسها عندما يزور حسنين فيلا أحمد بك يسرى فى بداية ونهاية) وتجاهل البك « ساءت الحال » رغم أنه قالها بعناية وبصوت واضح وهنا تتراءى صفة من صفات البورجوازية الكبيرة، الحرص الشديد والروح الاقتصادية فى علاقته مع من دونه طبقة ، والإسراف والبذخ مع من هم فى مثل طبقته لنذكر هنا تردد أحمد بك يسرى عن تقديم يد المساعدة للأم فى بداية ونهاية . كلا الموقفين يشيران إلى حقيقة اجتماعية وهى أن العلاقة بين البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الكبيرة علاقة اليد « اليد السفلى باليد العليا » ، قوامها « الحاجة » من جانب الأولى و « منحة » من جانب الثانية - فليس ثمة حق وواجب .

ويلتقى محجوب بتحية كريمة أحمد بك حميس « ربما كانت إحسان شحاته أفنن منها حسنا ، لكن تحية مثال كامل للتعبير عن الإناقة والكبرياء ، وأنموذج حى للأرستقراطية ... وسرعان ما وجد فيها الرمز الحى للحياة العالية التى يتآكل قلبه حسرة عليها » (٤١) . وسنجد مقارنة بين كريمة أحمد بك يسرى وبين بهية خطيبة حسنين الذى تخلى عنها لأنها — بتعبير زملائه طلبة الكلية الحربية — « بلدى » ولأنها أصبحت — فى رأيه — رمزا للماضى ولعطفه نصر الله — كلا البطلين يهرب من الماضى والماضى جزء منه دون أن يدرى . هذا الماضى الذى يهرب منه البطلان سيبتلع حاضرهما ومستقبلهما .

كانت المحنة التى مر بها محجوب امتحانا عسيرا لفلسفته الفردية . فهو يخفى مشكلته عن أصدقائه ، وهذا من آيات الفردية الطاغية . إنه لو أشركهم فى همه لوقفوا بجانبه ولاضطر أن يعترف بالصداقة وبالحاجة الاجتماعية للفرد .

---

(٤٠) الرواية : ص ٥٤ .

(٤١) الرواية : ص ٥٧ .

ولا تظن أنه من الذين لا يسألون الناس إلحافا ؛ على العكس إنه يلجأ إلى رجل ليس بذى مروءة ولا نجدة . ولكنه اتخذه مثله الاعلى . إنه يعرف حقيقة ماضيه . فهو لا ينسى أن صاحبه عرف آخر عهده بالكلية كزعيم خطير من زعماء الطلبة بعد مقابلة مع الوزير خرج بعدها بموقف حكيم — فى نظر أمثاله — « ميدان الجهاد الحقيقى للطلبة : العلم » ولما حصل على الليسانس عين — قبل أوائل الطلبة — سكرتيراً لقاسم بك فهمى وكان واسطته الوزير نفسه» (٤٢) انه سالم الأخشيدى جارهم القديم الذى رآه أثناء زيارته للقاطر فهتف فى حقد وحنق « ياقناطر .. يابلدنا .. وزعى الحظ بين أبنائك بالعدل »(٤٣) ان محجوب ليس من الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . إنه يتلهف على اليوم الذى يتخلص فيه من آثار ما علق فى نفسه من هذه الأشياء التى لا مدلول لها — فى رأيه — : الكرامة ، العرض ، الشرف ... الـخ وكأنه ينفض ترابا من حذائه .ألم يخاطب نفسه بلهجة التحريض : « الحرية المطلقة : حظ المطلقة . ليكن لى أسوة حسنة فى أبليس ... الرمز للكمال المطلق .. هو التمرد الحق ،والكبرياء الحق ، والثورة على جميع المبادئ » (٤٤) أنه يلجأ إلى رجل من طينته ، فهما من معدن واحد .

إن الأخشيدى لم يفعل شيئاً سوى أن أعطاه بطاقة توصية لمجلة النجمة . لكن ما تزال مشكلته تتمثل فى حاجته إلى النقود . إن مجلة النجمة على فرض نجاح مسعاه إليها علاج آجل فما العمل ! .. فمضى ساخطا على العالم يقول فى صوت أشبه بالنحيب « سيدفع العالم ثمن هذه الآلام » (٤٥) واضطر — على كره — أن يستدين من مأمون رضوان ثمن كتاب اللاتينى ومع هذا «كان راضيا وساخطاً معا ، راضيا لحصوله على النقود وساخطاً لأنه بات مدينا لمأمون رضوان » (٤٦) .

* * *

(٤٢) الرواية : ص ٣٣ .
(٤٣) الرواية : ص ٣٤ .
(٤٤) الرواية : ص ٣١ .
(٤٥) الرواية : ص ٦٨ .
(٤٦) الرواية : ص ٦٩

ويجتمع الأصدقاء الأربعة عقب تخرجهم ويتناقشون فى أمر مستقبلهم : أما أحمد بدير فسيتفرغ للصحافة ومأمون لم يكن يدرى إن كان سيبعث إلى فرنسا أم يبقى فى مصر ، ولكن هدفه بقى واحداً فى الحالتين ، الاسلام . أما على طه فلم يكن ذا هدف واضح ، ولكن اختلطت عليه الوسائل . كان مهيئا للاشتغال بالسياسة ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس . ولو وجد حزبا ذا مبادئ اجتماعية لا شرك فيه بلا تردد ، ولكن أين هذا الحزب ؟ فهل ينتظر حتى تنشأ الأحزاب الاجتماعية ثم يشترك فيها ، أم يأخذ هو فى الدعوة إليها منذ الآن ؟ لاشك ان الانتظار أسهل ، وأحكم ، اذ ماجدوى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى فى بلد لايشغله شاغل عن الدستور والمعاهدة . ولعله من الخير أن ينتظر قليلا ليستكمل عدته من العلم والمعرفة وغير ذلك ، فلم ينط أمله بالوظيفة ، ولاكاد يرفضها لو أتيحت له »(٤٧) وقد اتيحت له بالفعل — بناء على توصية من استاذ الفلسفة الذى رشح مأمون للبعثة إلى فرنسا — فرصة العمل بالمكتبة وتهيأ لاعداد دراسة ماجستير عن « توزيع الثروة فى مصر » .

أما محجوب فهو وحده الذى أدركه الجزع . إنه لايكترث لأمور الإسلام أو السياسة أو الإصلاح الاجتماعى فشغله الشاغل هو اتقاء شبح الموت جوعا إن الجوع لن يتهدده وحده ولكن يتهدد والديه معاً ، وهو بلا معين والحكومة لا يدخلها أحد بلا معين . فما العمل ؟ : « — اسمع يا بنى : تناسى مؤهلاتك ، ولا تصع ثمن طلب الاستخدام ، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها : هل لديك شفيع ؟ أأنت قريب أحد ممن بيدهم الأمر ؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة ؟ . إن أجبت بنعم فمبارك مقدماً ، وان أجبت بكلا فلتول وجهك وجهة أخرى »(٤٨) هكذا واجهه موظف المستخدمين بالحقيقة العارية... الوزراء يعينون الوكلاء

---

(٤٧) الرواية : ص ٧٩ .

(٤٨) الرواية : ص ٨١ .

من الأقارب . الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب . الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب . حتى الخدم يختارون من خدم البيوت الكبيرة . فالحكومة أسرة واحدة ، أو طبقة واحدة متعددة الأسر وهى حقيقة بأن تضحى مصلحة الشعب إذا تعارضت مع مصلحتها »(٤٩) .

إن طموحه كان لا يحد وزاده الفقر جموحا . قال متحديا : « أموت جوعا ؟ » فلا نزل القطر ، فلا نزل القطر ... ماذا عليه لو نشر فى الإعلانات المبوبة بالأهرام يقول : شاب فى الرابعة والعشرين ليسانسيه ، طوع أمر كل رذيلة عن طيب خاطر يبذل كرامته وعفته وضميره نظير إشباع طموحه « ألا يقتتل عليه العظماء ؟ ولكن من له بنشر هذا الإعلان ؟ .. من عسى أن يأخذ بيده ؟ »(٥٠) .

لم يعد أمامه سوى «سالم الاخشيدى» ويقول له الاخشيدى وهو يحاوره بشأن الوظيفة : « — لست بالفتى الأمرد ، ولا أملك بالفاتنة اللعوب ، فما عسى أن أصنع أنا ؟ ! »(٥١) ويدعوه لحضور الحفل الخيرى الذى تقيمه السيدة نبروز لصالح جمعية الضريرات فربما وجد عندها فرصة للعمل خاصة وأنها مغرمة بالشبان وتعشق الدعاية .

لكن أين له ثمن التذكرة ؟ ! ويضطر مرة أخرى أن يستدين ثمن التذكرة (٥٠ قرشا) من على طه وحين يعلم أن عواطف إحسان شحاته — حبيبة على طه — تغيرت تجاهه ينفث حقداً ومرارة . ويقول لنفسه « ما ضيره لو فقد إحسان ؟ فلا يزال ذا وظيفة وشباب وجمال ! احسان التى طالما أصلته ناراً ، فمن الرحمة ألا يفوز بها منافسه وإن فاز بها ثالث غيرهما »(٥٢) .

وعندما يحضر الحفل تتفجر فى نفسه الرغبة العنيفة فى الحياة الارستقراطية

---

(٤٩) الرواية : ص ٩٨ .
(٥٠) الرواية : ص ٨٢ .
(٥١) الرواية : ص ٨٢ .
(٥٢) الرواية : ص ٩٠ .

– والفقير لايدرك حقيقة فقره إلا إذا اطلع على جانب من حياة الأغنياء – التى تتطلع إليها نفسه العجول . « وتنهد محجوب ولو أمكنه – فى تلك اللحظة – أن يصير عظيما ولو بجريمة ترمى به إلى حبال المشنقة لما تردد ما الذى منع من أن يكون أحد هؤلاء الشبان ؟ الدنيا جميعا ، القوى الكونية التى خلقت التاريخ ، – وضعت الطبقات – وقسمت الحظ ، وجعلت عبد الدايم أفندى أباه ، والقناطر مسقط رأسه »(٥٣) .

إن محجوب يكتشف أن هذا المجتمع الراقى يعتنق مبادئه وفلسفته دون ضجة أو تفلسف فـ « كيف يتاح له التفوق فى مثل هذا المجتمع ؟ ! . إنهم جميعا يعلمون بمبادئه بغير حاجة إلى تفلسف ؛ ولن يمتاز دونهم باستهتار أو جرأة ، فما الفائدة ؟ أليس من الأفضل أن ينقلب فاضلا إمصلحا كمأمون رضوان أو كعلى طه ؟ »(٥٤) ويمر أمامه شاب ممشوق القوام بديع الحسن فيسأل أحمد بدير عنه ويعرف أنه موظف ببنك مصر متخرج من كلية الحقوق منذ عام . مرتب ثلاثون جنيها . فسأله : – ومن شفيعه؟ فضحك بدير قائلا :

– هو شفيع نفسه يا أحمق ! »(٥٥) .

* * *

ويعجب الفتى أن يطرق العمل بابه ، وظيفة ! درجة سادسة سكرتير .

---

(٥٣) الرواية : ص ٩٥ .

(٥٤) الرواية : ص ٩٧ .

(٥٥) الرواية : ص ٩٨ .

ويقول نجيب محفوظ « كنت استغل الشذوذ الجنسى فى ذلك الحين كعلامة من علامات الفساد السياسى فى العهد البائد .. فى السياسة مثلا كانت بعض مواد النجاح وأو أهمها الشباب الناشىء هى القرابة ، الانتهازية ، الرشوة ... ثم انتهازية الجمال سواء كان فى الذكر أو الأنثى لهذا كان الشذوذ صاحب الإنحلال خطوة خطوة ، وكانت مهمتى هى الإحاطة الشاملة بهذا الانحلال وتسجيله » .

إقرأ : يوسف الشارونى ، دراسات فى الرواية والقصة القصيرة ، الأنجلو سنة ١٩٦٧ ، ص ١٨ .

هكذا قال له الاخشيدى. أفهمه أنه يمكن أن يأخذ إذا أعطى : هكذا الحياة. والعطاء أن يبيع شرفه — أو ينفض آثاره — ويقبل الزواج من فتاة اعتدى عليها قاسم بك فهمى . ومحجوب يعرف أن الاخشيدى ليس بذى مروءة ولا نجدة وإنما هو « يروم خدمة مولاه واكتساب رضاه . ولعله إن لم يظفر بزوج طيب للفتاة التى اعتدى البك عليها اضطر أن يقدم نفسه كبشاً للتضحية « لكن هناك حقائق لا يغفل عنها محجوب » . هنـــاك وظيفة سكرتير ، وهنالك الدرجة السادسة ، أفيجوز أن يضحى بها ؟ ولماذا .. أيشعر بما يدعونه غيرة على العرض !.. حاشاه . أيصدق فيما يسمونه الشرف ؟ .. تباً له ... فينبغى أن يختار دون تردد . التردد معناه أنه لا يزال غير أهل بفلسفته ... وجعل يحدث نفسه : قرنان فى الرأس يراهما الجاهل عاراً ، وأراهما حلية نفيسة . قرنان فى الرأس لا يؤذيان : أما الجوع . . . سأكون أى شىء ، ولكن لن أكون أحمق أبداً . أحمق من يرفض وظيفة غضباً بما يسمونه كرامة . أحمق من يضيع على نفسه لذة لأى وهم من الأوهام التى ابتدعتها الإنسانية.. وليكن لى أسوة حسنة فى الاخشيدى ، ذلك الفتى الأريب « ظفر بوظيفة لأنه خائن ، ورقى لأنه قواد. فإلى الأمام . . إلى الأمام »(٥٦) .

ولبث طوال يومه متفكراً فى أمره . ومضى يستعين بقدرته على المحاجاة وبخالة فلسفته الانتهازية فى تبرير موقفه « الزواج ! » . لا ينبغى أن يدع إسما يهوله ، فما هو إلا إسم (. . وكثير مما نحسبه حقائق أو قيما ما هى لا أسماء . هو عادة اجتماعية . وفى بعض البلاد يتعدد الأزواج كما تتعدد الزوجات فى بلاد أخرى وقد يباح الزنا فى بلاد ، وكانت الإباحية قانونا فى بعض المجتمعات فليس هناك قانون مطلق للزواج وليتحلى بما أثر عنه من شجاعة . جسارة »(٥٧) ومضى وهو فى الطريق إلى منزل الاخشيدى يحدث نفسه « ... ترى من عروسه »؟ . . صورتها ؟ ما أسرتها؟ ما أخلاقها وأحوالها ؟ ! قلبه يحدثه بأنها جميلة وإلا ما جذبت شخصاً

(٥٦) الرواية : ص ١٠٧ ، ١١١ .

(٥٧) الرواية : ص ١١١ .

كقاسم بك . ولكن لاشك كذلك فى أنها فقيرة كما يدل اختياره زوجا لها . والفتاة الغنية لايعوقها عن الزواج عائق . والشرف قيد لايغل إلا أعناق الفقراء »(٥٨) . تلك هى جوهر أزمة « نفيسة » التى ستواجهها فى بداية ونهاية فمشكلتها أبلغ إدانة للفقر ، والنهاية التى كان من ورائها شقيقها حسنين تشى فى أعماقها بأنه لم يستطع أن ينسلخ تماماً عن ميراثه الشعبى ، عن الشرف والعرض . فمفهومه فى تلك الطبقات الشعبية واحد لايتغير ، الدم . أما فى الطبقات الراقية فلا تعدم الفتاة الغنية أن تجد الزوج المناسب .

— ٤ —

يلتقى خط محجوب عبد الدايم بخط إحسان شحاته المقابل الأنثوى لشخصيته إنه يعجب من سقوطها وهو يعلم تماماً حقيقة مشاعر على تجاهها وصدق عاطفته لكن كيف وقع هذا ؟ (. ألم تكن تحب على طه ؟ بلى كانت ولكنه ليس الحب الذى يعمى ويصم . ليس الحب الذى يصمد للتجارب الشديدة والمغريات العنيفة كانت تحب الجاه كذلك وتكره الفقر »(٥٩) «بل كانت تقول لنفسها مرات متأسفة « إن العيش السعيد شباب وثياب ! »(٦٠) كانت إحسان عظيمة الشعور بجمالها وفقرها . إن على يحبها حبا يملك عليه قلبه ونفسه ، ولكنه يرجو أن يجعل منها فى المستقبل زوجا غير الزوج التى تعرفها البيوت الشرقية »(٦١) أما هى فكانت تئن تحت حمل أسرتها الثقيل . كانت الفيلا منظراً بديعا ، والسيارة كنزاً نفسيا ، والبك ألبسها من آل الذهب والسلطان . لقد قاومت أول مرة من الشاب الحقوق لأنها كانت أول مرة . ثم راح والداها لايسكتان عن الإلحاح ، وقد جعلاها منذ التجربة الأولى فى حل من كل استهتار ، بل جعلا عصمتها بيدها ولولا على لهوت وانتهت من زمن بعيد . بيد أنها لم ترد فيما بينها وبين نفسها — أن تعترف

(٥٨) الرواية : ص ١١٢ .
(٥٩) الرواية : ص ١١٦ .
(٦٠) الرواية : ص ١١٧ .
(٦١) الرواية لا ص ١١٧ .

بضعفها . فجاذبتها فى ليلتها المسهدة عهود كثيرة وعواطف متباينة . وترددت بين البك وعلى طه . . بين زوج اليوم وزوج الغد البعيد ، بين الراحة والتعب ، بين حياة الدعة والاطمئنان وحياة الكد والكفاح بين عيش رغيد لها ولاسرتها وحياة كلها مُغالبة لفقر لايُغلب ... وأوهمت نفسها أنها تضحى بسعادتها فى سبيل سعادة الآخرين ، وأن الليل استقبلها فتاة معذبة ، وطلع الفجر عليها شهيدة من الشهداء(٦٢) وهى تقارن بين البك وعلى طه « كان على طه عاشقاً وناقداً فى آن ، يحب ولكنه ينقد ويعلم ويرشد أما البك فرجل فاتن . . . وكان إذا نظر فى عينيها الجميلتين وعاطاها الحديث شعرت بتخدير عام واستسلام حالم »(٦٣) .

لكن هل هى المصادفة وحدها التى جمعت بين إحسان ومحجوب ؟

إننا لو نظرنا إلى البناء النفسى والاجتماعى لكل منهما على حدة ، ثم فى إطار النظام الاجتماعى والاقتصادى الرأسمالى لأمكننا أن نتلمس بعض الضوء على المشكلة إذ أنها فى حقيقتها تحدد الفلسفة الاجتماعية للرواية فهل كان سقوطهما حتمياً ؟ ! وما مدى مسئولية كل منهما ؟ ! . بقول آخر هل الموقف الفردى الذى اتخذه كل منهما ثمرة لظروفهم الاجتماعية ووضعها الاجتماعى أم أنه مرتبط ارتباطا جذريا بالموقف الاجتماعى العام والذى هو ثمرة للنظام الرأسمالى دعامة مجتمع ما قبل الثورة ؟ هل نعدهما ضحية لنظام أو قوى اجتماعية ليس لهما قبل بالتصدى لها . أم لانجردهما من المسئولية ؟

إن معايشتنا للبطل الانتهازى فى غدواته وروحاته ، فى مناجاته الداخلية وخطرات نفسه هى التى شكلت العناصر التأليفية Motifs فى بناء شخصيته.

إن البناء النفسى والاجتماعى لشخصية البطل محجوب أوضح لنا تأثير وطأة الفقر على نفسيته الساخطة وفلسفته الانتهازية فى تمهيد الطريق للنهاية التى وصل إليها . لكنه مسئول تماماً عن اختياره. إنه اقتنع بأن الشرف قيد لا يغل

---

(٦٢) الرواية : ص ١١٦ .

(٦٣) الرواية : ص ١١٧ .

أعناق الفقراء فاندفع ينشد اللذة والقوة بأيسر السبل وأقصرها . كان فى وسعه أن ينفتح على أصدقائه لكنه أبى . وفى الموقفين اللذين لجأ فيهما إلى صديقيه مأمون رضوان وعلى طه لم يكن راضيا تماما .

ونقطة البدء فى سقوطه الحتمى تبدأ من لحظة قبوله الزواج من فتاة اعتدى عليها رجل من كبار رجالات الدولة . فتداعى البطل محجوب — ومعه إحسان — تداع حتمى . وأسبابه كامنة فى شخصيتهما وفى ظروفهما الخاصة . إن جسارته بلغت حد الاستهانة بكل شىء ، وفلسفته انتهازية لاتبقى ولا تذر . فقد سبق أن فوت — بسبب فلسفته — الفرصة فى الاستفادة من صداقة حمديس بك لأسرته ، وهو أخيراً يتعجل التفوق على سالم الأخشيدى غافلا عما يمكن أن يدبره له الأخشيدى من فضيحة . وقد كان .

أما إحسان فقد دفعها الفقر وسوء التربية التى نشأت فيها إلى السكوت . لكنها مسئولة تماماً عن موقفها . كان على طه يحبها وكانت تحبه . لكنها كانت ضعيفة الإرادة . ألم تشعر بالاستياء عندما اقترح عليها أن تلتحق بكلية الآداب « لتكون عقلا واحداً وفنا واحداً ومهنة واحدة »(٦٤) . لكنها فى أعماقها كانت تؤثر الدعة على حياة الكفاح . تصورت أو توهمت أنها بقبولها « الباك » ستنقذ أسرتها وأشقاءها السبعة من الشقاء . وكانت واهمة . أنها مسئولة مسئولية تامة عن سقوطها .

فالرؤية النقدية لها على المستوى الفردى تحملها تبعة سلوكهما . بمعنى أنهما مسئولان عما اتخذا من مواقف فردية . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن هذه الرؤية النقدية الاجتماعية تستشرف آفاقاً اجتماعية تتخذ من الموقف الفردى جزءاً من « الكل » الاجتماعى . ويترتب على هذا ، أن هذه الرؤية تدين البناء الاجتماعى بكافة انساقه الاقتصادية والاجتماعية . بحيث أننا نرى — وفق هذا المنظور — أن سقوطهما ثمرة — ولا نقول ضحية — للنظام الاجتماعى الاقتصادى الرأسمالى وضرورة فرضها هذا النظام عليها .

---

(٦٤) الرواية : ص ١٩ .

فليس بجدى كلمات على طه الثورية فى إنقاذ فتاة مثل إحسان ، ومن هنا تكون المصادفة ليست هى غير المتوقع وإنما هى تعبير عن ضرورة شاملة ، ويقول محمود أمين العالم » : « فى تقديرى أن نجيب محفوظ بحرصه على هذا اللقاء بين إحسان وبين محجوب إنما يريد أن يقول شيئا ضرور باعبرت عنه مصادفة هذا اللقاء ، يريد أن يحدد قانونا تفرضه طبيعة الأشياء الاجتماعية. يريد أن يقول إن الكلمات الثورية وحدها لاتستطيع أن تنقذ فتاة مثل إحسان من وهدة السقوط فى الرذيلة .

لم يكن من هم على طه إلا الكلمات الثورية وحدها ، كان دائماً يقف من إحسان حبيبته موقف المعلم ، ولكن فلسفته لم تتخذ موقفا عمليا فعالا بعد ، ولهذا عجزت عن إنقاذ إحسان . وفى مثل ذلك الإطار الاجتماعى الفاسد ، وفى مثل ظروفها الخاصة من فاقة عائلة وعوز ، كان من الضرورى أن تنزلق إلى الرذيلة . وأن تلتقى بمحجوب هذا اللقاء الزوجى المشين . . . وكان لقاؤهما المصادف معنى من معانى وحدة المصير وضرورته »(٦٥) .

• • •

لم يكن محجوب يطمع فى أن تنظر إحسان إليه « كزوج بالمعنى المفهوم لأنه هو نفسه لايستطيع أن ينظر إليها هذه النظرة ، وحتم أن تراه — فى قرارة نفسها — قوادا كما يراها فى قرارة نفسه — عاهرة . فهل يمكن أن يسعد قواد وعاهرة معا ؟ ! هذه هى مسألته دون زيادة وبلا نقصان ! إنه لايروم من حياته الزوجية معنى اجتماعيا ، ولا ذرية صالحة ، ولا احتراما متبادلا ، كل ما يريده رغبة متبادلة ، ميل يعادله ميل ، شهوة بشهوة ، وحسبه هذا من زواج غاية . إنه يروم حبا بلا غيرة »(٦٦) لكن هل طابت له هذه الحياة . لقد دبت الغيرة فى قلبه نافثة سمها القتال . كان ينظر إلى التليفون على أنه القواد الثانى . فما يفعل و هو يحب إحسان « لقد قبل الزواج

---

(٦٥) محمود أمين العالم : المعمار الفنى فى أدب نجيب محفوظ ، الهلال ، نوفمبر ١٩٦٤ صفحة ٥٦ .

(٦٦) الرواية : ص ١٣٤ .

بادىء الأمر على أنه مساومة نفعية ، وأراد أن يتغلب على وضعه الشاذ بحريته المطلقة وطموحها النهائى ، ولكنه يطمع الآن فى أكثر من جسد زوجة ، يطمع فى عواطفها ولو أن حظه كان جمعه بغير إحسان — الفتاة التى أحبها قديما — لربما كان الحال غير الحال . أما إحسان فلا يملك أن يحبها »(٦٧) وأراد أن يكاشفها عن سبب ترديها فى الهاوية لكنه عاد من حيث بدأ فى حيرة وقلق . أدماه جرح عميق . إن الخيوط الواهية التى تصله بالناس بدأت تنقصف واحد إثر واحد ، وبدأ يهوى إلى وحدة عميقة . أحس أنه فى واد والدنيا كلها فى واد « غدا قلبه فريسة للغيرة ، ولم يعد يؤمن بأن الأمر مجرد رفع الصمام عن خزانة البخار كما كان يحلو له أن يقول كلما سئل عن الحب أو المرأة . كان شعوره بالحاجة إلى زوجة عنيفا قويا . ولم يكن — حتى فى حالته تلك — يؤمن بالحب كما عرفه على طه . ولم يعرج ببصره إلى السماء قط ، ولا حلم بالمثل والأوهام ، بيد أنه شعر بحاجته إلى الفتاة كقوة مستبد غشوم ، لا تقنع بمجرد بلوغ الجسد ، ولكنها تطمع فى أن تستبد كذلك برغبته وميوله وهواه ، فتكون رغبة متبادلة ، وشهوة متبادلة ، وجنسا متبادلا ، وبغير ذلك لا يمكن أن يشعر بأنه بدد الوحشة وفاز بالعزاء »(٦٨) لكن أين الحب ؟ — إن « الفتاة تشاركه أمله ، وتحسن معاشرته ، ولكنه يشعر بأنها تؤدى واجبا بإخلاص . . . ارتبط مصيرها بمصيره ، وهى تحب الحياة كما يحبها ، تهوى الترف كما يهواه ولكن ينقصه شىء كى يكمل هذا الامتزاج حقا ، شىء يروعه افتقاده حتى فى تلك الأوقات التى يبدون فيها سعيدين تملين » والشفة على الشفة والصدر ملتصق بالصدر . وليس هذا بالشىء الذى يهون وإن قال عنه — فى غمرة اليأس — طظ . بل إنه ليحدث فى نفسه ثورة شبيهة بتلك الثورة التى أحدثها الجوع من قبل ولذلك فكر جديا فى أن يسطو كما يسطى عليه . . . ومن يدرى ؟ . . فلا يبعد أن يقصد اليه غدا أو بعد غد ذوو الحاجات ،

---

(٦٧) الرواية : ص ١٥٦ .

(٦٨) الرواية : ص ١٥٥ .

وكما أعطى ينبغى أن يأخذ »(٦٩) .

* * *

وجد محجوب نفسه أمام حانة « لا روز » فمال إليها بلا تردد . قال له شاب بجالسه ، وهما يتشاربان :

— . . . فى مجلس الأنس كما فى مجلس النواب ، ليس بالمهم أن تفهم ما يقال ، ولكن المهم أن تتكلم . . .

— علام يدل امتلاء الحانات بالواردين ؟

— يدل على أن دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور ١٩٣٠

— أتحسب أن دستور ١٩٢٣ يعود ؟

— أين هو الآن ؟

— فى ضريح سعد مع جثث الفراعنة .

— فليحفظوه هناك حتى نستحقه .

— هل أنت وفدى ؟

— كلا . . . أنا حنبلى ،

— وأى فرق ترى بين الاثنين ؟

— الحنبلى ينقض وضوءه خيال الكلب

— والوفدى !

— ينقض وضوءه خيال الظل .

— إذن أنت حر دستورى ؟

— أنا . . أنا فى الحقل . . !

— أنت كبش إذا ذو قرنين . . »(٧٠) .

ويعكس هذا الحوار حديث سُكارى ، وما هم بسكارى . إنهم يحملون فى أعماق وجدانهم القلق السياسى والاضطراب الذى كان يسود البلاد إبان

---

(٦٩) الرواية : ص ١٨٢ .

(٧٠) الرواية : ص ١٤٨ .

حكم صدقى باشا الذى أبطل دستور ١٩٢٣ وأعان العمل بدستور ١٩٣٠ وقد وقف حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين موقفا صلباً متشدداً من هذا الدستور ومن حكومة صدقى . فالحوار يشى بهذا الموقف المتشدد الذى كان للوفد — « الحنبلى » فى القضايا الوطنية ولكنه يعكس من جانب آخر اكتفاء هؤلاء الذين يعلمون بأن دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور ١٩٣٠ بالقول فقط . إنه حوار الذى يعلم أنه يعربد فى حانة « لاروز » والوزير يعربد مع زوجته فى منزله ، فتلسعه كلمة رقيقة فى السكر لسعة النار حين يقول له أنت كبش ذو قرنين »(٧١) .

الحوار إذن يكشف عن المناخ السياسى عادة وعن مأساة محجوب وأمثاله خاصة .

وعقب الأزمة الوزارية عين قاسم بك فهمى وزيراً فى الوزارة الجديدة .

---

(٧١) إقرأ : عبد العظيم محمد رمضان ، تطور الحركة الوطنية فى مصر ، ص ٧٣٢ ، ٧٣٤ ، ٧٣٨ ، ٧٤١ . وأيضاً : د. عبد العظيم أنيس فى الثقافة المصرية ... ص ١٦٠ . ويوضح د.محمد أنيس موقف الوفد فى الفترة ما بين الحربين العالميتين (وأحداث الرواية تقع فى الثلاثينات من هذا القرن) فيقول : اضطر الوفد فى الفترة ما بين الحربين العالميتين إلى أن يخوض معركة الدستور ضد القوى المفسلخة منه ، والتى وضعت نفسها فى خدمة السراى أو الإنجليز ، فلم يستطع الوفد أن يتفرغ لقضية الصراع فى سبيل الاستقلال ضد الإنجليز كما بدأ فى ثورة ١٩١٩ . ولقد كان طبيعياً أن تؤدى هذه الانسلاخات إلى تضاعف قوة معسكر الثورة المضادة . ولكن الوفد بأتباعه الأساليب السلمية المشروعة فى الكفاح ،كان عاجزاً عن أن يحقق مكسباً واحداً ضد السراى فى معركته الدستورية أو ضد الإنجليز فى معركة الاستقلال ، ولم يتخذ الوفد أسلوباً ثورياً فى النضال ضد الجبهتين : فلم يرفع شعار إسقاط الملكية وإعلان الجمهورية ، بل ظل يتمسك بدستور ١٩٢٣ طوال نضاله من أجل حياة ديمقراطية . والعلاقة بين كفاح الوفد فى سبيل دستور ١٩٢٣ وبين سعيه فى سبيل الاستقلال علاقة وثيقة فالوفد يتمسك بدستور ١٩٢٤ ليأتى إلى الحكم ثم يدخل سريعاً فى مفاوضة مع الإنجليز فإذا فشلت المفاوضات لا يكون أمام الوفد إلا أن يستقيل أو يقال . ويظل هكذا عاجزاً عن إحراز نجاح فى قضية الاستقلال . وخلاصة هذه النقطة أن الوفد رغم التفاف الجماهير الشعبية حوله إلا أنه لم يستطع أن يحرز انتصاراً حازماً بسبب أساليبه غير الثورى فى الكفاح ضد السراى أو ضد الاستعمار البريطانى .

د. محمد أنيس ، د. السيد رجب حراز ، ثورة ٢٣ يوليو ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ .

ويحلم محجوب أن يعين مديراً لمكتبه قال لإحسان بحماس وإيمان :

« همتك ، همتك يا بطلة ! » فعلى نتيجة سعيك يتوقف مصيرنا . وفى صباح اليوم الثانى يتناول الأهرام باهتمام ونظر فى الصفحة الأولى فجره بصره على عمود من الصور ، الوزراء الجدد ووجد فى وسطه مبتغاه ، صورة قاسم بك فهمى ، فاستقرت عليها عيناه ، وتنهد من الأعماق ترى هل يحقق هذا الأمل ! . . . هل تستطيع قبلة أو رنوة أو تنهدة أن تنقله من حال إلى حال ، وأن ترفعه من طبقة إلى طبقة ؟ ! » (٧٢) ويعين بالفعل مديراً لمكتب الوزير ، عشيق زوجته ويقوم بعض زملائه بالاحتفال بتعيينه مديراً للمكتب ويقومون برحلة نيلية إلى القناطر ويدور حوار حول مصر والمصريين. وينفرد محجوب بالدفاع عن القومية المصرية . . ولكنه لايلبث أن يخرج بنتيجة تتفق مع فلسفته النفعية فهو يقول لعفت : — فما قولك فى خطبة الباشا والدك فى مجلس الشيوخ ، عند مناقشة الميزانية التى دافع بها عن الفلاح دفاعاً وطنيا مجيداً ؟ ! .

فقهقه عفت وقال كالساخر :

— هذا فى مجلس الشيوخ ، أما فى البيت فكلانا متفق — أنا ووالدى — على أن أنجح سياسة مع الفلاح هى : السوط ! وضحك الحاضرون . . . وابتسم محجوب يدارى هزيمته ، وقد أفرخ روعه ، وارتاح إلى تفرده بالدفاع عن « القومية المصرية » وقال لنفسه : إن بدلة التشريفة الحقيقية هى ثوب الرياء فلا يفوتنى ذلك ! « وتساءل ساخراً : ترى كيف يصلح على طه هذا الشعب الكريم ؟ وكيف يحقق مثله العليا ؟ »(٧٣) .

شعر محجوب بأن الدنيا أقبلت عليه ... ولكن أثبتت له الحوادث أنه إذا كان يستطيع أن يتحكم فى نفسه فإنه أعجز من أن يدعى القدرة على التحكم فيها . إذ انكشف أمره وفاحت رائحة الفضيحة نتنة تزكم الأنوف.

---

(٧٢) الرواية : ص ١٧٤ .

(٧٣) الرواية : ص ١٩٠ .

وتنتهى حياة البطل الانتهازى وهو يقول لأبيه فى حنق وحقد : — انتهى كل شىء ، انتهت الوظيفة والماهية . هلم نتسول معاً . . .

— ٥ —

والمتأمل فى صورة البطل وتأثرها بالبناء الروائى وتأثيرها فيه نلاحظ أن نجيب محفوظ قد اهتم بإبراز شخصية البطل محجوب عبد الدائم بحيث جاء شخصية مستوية كاملة . وثمة خيط رفيع لايكاد يرى يصلها بالشخصية المتطورة . هذا الخيط هو تحول الشخصية من الاندماج فى الحياة إلى شخصية تواجه الحياة وتتخذ منها موقفا . بمعنى أن اندماج البطل فى نهر الحياة لم يتح له الفرصة لإتخاذ موقف واضح اللهم إلا لظ ، أما بعد أن سنحت له الفرصة بدأ ينتقل من الإيمان الداخلى « بالانتهازية » إلى التنفيذ الخارجى ، الفعلى بسلوكه الاجتماعى تحولت الخواطر المحتبسة التى تمور فى أعماقه إلى سلوك عملى وموقف من الحياة وهذا هو الخيط الرفيع الذى يصل الشخصية المسطحة هنا بالشخصية المتطورة . صحيح أن شخصيته جاءت شخصية نمطية وكما يقول فورستر : « . . . والمحك للشخصية المستديرة هو : هل هى قادرة على إثارة الدهشة فينا بطريقة مقنعة ؟ فإذا لم تدهشنا ، تعتبر مسطحة . . . والشخصية النامية تمثل اتساع الحياة داخل صفحات كتاب »(٧٤) . وشخصية محجوب وإن كانت قد أقنعتنا فإنها لم تثر فينا الدهشة . فإن كلمة « لظ » التى كثفت فلسفته ونظرته إلى الحياة جعلتنا لانعجب من إقدامه فى جسارة لاتعرف الحدود وميكيافيلية وصولية على فعل أى شىء . لم تدهشنا فيما اتخذت من مواقف لكن هذا لا يمنع من وقوفها نموذجا دالا على الانتهازية والنذالة .

ظهر محجوب نموذجا إنسانياً ونمطا اجتماعيا ناضجا . وقد نسج نجيب سماته النفسية والاجتماعية بدقة تارة عن طريق مناجاته الداخلية للبطل والتى تكشف عن فلسفته ، وتارة عن طريق مواقفه العملية ومنهج موجهته للأحداث . إبتداء من وقفته أمام بائع الفول وفى حسابه للجنيه الذى يعيش به ، إلى

(٧٤) صفحة ٩٠ من الترجمة العربية التى ارتضاها الباحث .

نظرته الشاملة على الحجرة التى كان يقيم بها بعد أن باع نفسه وانتقل إلى عمارة شليخر . من البدء أمكن لنا أن نكون صورة عن محجوب الشاب الانتهازى . ومن البدء ونجيب حريص على أن يوغل فى إبراز تفاصيل هذه الصورة ، إلا أنه قد حصر تلك التفاصيل فى إطار محدد قاصر على شخصية محجوب وما يتعلق بها وحدها ، وحدد رقعة الحدث وزمانه تحديداً صارما. فالرواية تبدأ بالكارثة التى تغير حياة محجوب وتنتهى بسقوطه والحديث لا يتشعب فيما بعد ذلك ولا يعود إلى ما قبل هذه الفترة إلا بما يكفى لفهم الشخصية »(٧٥) .

جاءت صورة البطل الانتهازى مجسمة مكبرة تكشف عما يعانيه العمق الاقتصادى والسياسى فى البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى . وليس أدل على حساسية نجيب الاجتماعية من التفاته حوله فيرى الزيف السياسى والرشوة والانتهازية والانحراف الجنسى ضاربا أطنابه كالسرطان فى نسيج المجتمع . فعانت نفسه الحساسة ما فى الواقع الاجتماعى الهابط من زيف وعبر عن ذلك فى صورة تقطر أسى بحيث اتفق وكل ما فى نفوسنا من إيجابية الثورة على هذا الواقع وعلى محجوب وأمثاله .

نجيب محفوظ إذا اختار نموذج الإنسان الضائع وهو يواجه المجتمع المعقد . ومن الأمور ذات الدلالة أن يركز نجيب التفاته حول البطل الانتهازى فى تلك الفترة بالذات . وهى الفترة التى بدأ يسجل فيها مرحلته الثانية : المرحلة الاجتماعية بعد أن انتهى من مرحلة الرواية التاريخية . وقد أحس نجيب إحساساً عميقاً بالمشكلة الاجتماعية وبالعدالة الاجتماعية الضائعة . وأحس فى الوقت نفسه أن نسيج المجتمع قد تهتك من كثرة ما عشش به فجعل اهتمامه بالثنائية الفكرية فى المحل الثانى . فكلمات على طه الثورية لم تمنع إحسان من السقوط إذ أن المجتمع فاسد من أساسه . والقارىء يشعر بشىء

---

(٧٥) د. فاطمة موسى ، نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية ، الكاتب ، يوليو ١٩٦٨ ص ٦٨ .

من الأسى . وهو يتساءل : أهذه هى القاهرة الجديدة ؟ ! : قاهرة القوادين والأفاقين والانتهازيين والمرتشين ؟ أم هو الوجه الآخر ؟ : إن نجيب ليس من السذاجة بحيث يقول لنا إن هذه هى أبعاد صورة القاهرة الجديدة . أراد أن يهز مشاعر القارىء ووجدانه ويفتح عيوننا على واقعنا الهابط ، ألم يطلعنا نجيب على طرف من ماضى « سالم الاخشيدى » ألم يكن زعيما من زعمـــاء الطلبة ثم انقلب إلى الطرف الآخر ، انتهازيا وقواداً . إنه يريد أن يقول ما أحوجنا إلى لحظة صدق.. لحظة صدق مع النفس أولا .

ويعيب د . عبد العظيم أنيس على نجيب أنه لم يعرض للجوانب الأخرى الإيجابية فى القاهرة الجديدة والمتمثلة فى مظاهرات الطلاب السياسية وإضرابات العمال النقابية(٧٥) والمرجح أن نجيب ما كان على يقين من أن هذه الانتفاضات أشبه بفقاعات الهواء سرعان ما تتبدد وسط المحيط بها . إنه يركز على الجانب الخفى والمؤثر فى الوقت نفسه فى القاهرة الجديدة . كما أنه يعيب على نجيب أيضا أن شخصية محجوب « شخصية مستوية بشكل عام . والذى نقصده هنا بكلمة مستوية هو أنها شخصية بدأت كريهة حقيرة وانتهت كريهة حقيرة . لا يتمثل فيها عنصر النمو والتطور والاستجابة للمؤثرات الاجتماعية العامة أو الخاصة . ومن واجبات الكاتب أن يقدم لنا النمـــوذج البشرى ، الشخصية الإنسانية فى حركتها وفى تأثيرها ، وفى نموها ككائن حى ، وهو ما يسمى عادة بديناميكية الرواية . وبهذا الأسلوب فقط يمكن أن يضيف إلى فهمنا بالحياة فهما جديدا ويرفعنا إلى مستوى أعلى من الوعى بالحياة والواقع »(٧٦) والواقع أن تقديم الروائى شخصياته فى صورة مستوية ليس عيبا فى ذاته وإنما السؤال هو : هل هذه الشخصية مقنعة فنيا أم لا ؟ ! هل سلوكها مبرر ومنطقى مع طبيعتها وأبعاد شخصيتها ؟ ! هذا هو السؤال . هل أثارت فينا السخط على التدهور أو التداعى الذى أصاب البناء الاجتماعى ؟ ! ثم إن مطالبة الروائى بأن يزيدنا فهماً للواقع وإحساسا به لا تأتى عن طريق تقديمه شخصيات

---

(٧٥) د. عبد العظيم أنيس ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٧٦) المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

متطورة دراميا فحسب بل إن الشخصية المستوية قد تكون أمعن فى الدلالة على المضمون الفنى والاجتماعى الذى يهدف إليه الروائى . وهذا ما حدث هنا . وربما جاء هذا النقد فى موضعه لو أن نجيب اعتمد تجربته على هامش الحياة . ولكنه أختار نموذجا جعله بمثابة مشجب علق عليه آفات مصر وعيوب أفراد يتخذون الانتهازية أسلوبا لحياتهم . والوعى بالحياة والواقع « يأتى عن طريق المعالجة الفنية والاختيار المرهف للعناصر التاليفية (Motifs) التى تؤلف مجتمعة النموذج البشرى والتى يستمدها الروائى من الحياة التى تمور حوله . وما أكثر الاشياء المحيطة بنا والتى نعايشها بل نكابدها بدرجة تقرب أن تكون ألفة واعتيادا ثم يأتى الروائى ليعيد اكتشافها لنا فتبدو وكأننا نراها أول مرة . وتجعلنا نعيد اكتشاف واقعنا ونعمق من شعورنا باللحظات العابرة التى نحياها . ومن ثم فالروائى يهدف هنا إلى إعطاء الإنسان وعيا بما يجهله عن نفسه وواقعه . وعنصر إختيار الكاتب لموضوعه هنا له وظيفة معينة تطالبنا بأن يكون لنا موقفا بوصفنا قارئين للعمل الفنى . وهنا تكمن الإيجابية الديالكتيكية (٧٧) .

ولقد فرض النموذج على البناء الروائى طابعه ، بمعنى أن شخصية محجوب نمت فى اتجاه واحد يستند أساسا إلى موقفه من المجتمع و الناس ومصدر هذا الاتجاه الأفقى المسطح . هو على الأرجح – نتيجة لارتباط الشخصية بالحدث

---

(٧٧) يوضح نجيب محفوظ تجربته فى تقديم الشخصية الإنسانية فى الرواية فيقول :

« العلاقة بين الشخصية الروائية والشخصية الطبيعية تظهر فى المعادلة الآتية : الشخصية الروائية = شخصية طبيعية + المؤلف . فإظهار شخصية طبيعية فى عمل فنى كما هى فى الحياة .. محال . فليس لدينا الوقت أو الفرصة لمتابعة شخص فى الحياة – فى ظروفه وأحواله ولو انقطعنا له . الشخصية الطبيعية عند دخولها فى الرواية تتخذ وظيفة جديدة وتدل على معنى جديد ، وتكون جزءاً من لوحة كبيرة ، حتى أننا فى النهاية ننسى الأصل ، ولا يبقى لنا إلا الشخص الخيالى . باعتباره الخادم لفكرتنا ولإحساسنا . فكل شخصية أصل فى الحياة . ولكنها فى الرواية غيرها فى الحياة .. وإلا ما كانت فناً على الإطلاق . خذ مثلا : الحجر فى الجبل ، والحجر فى الفيلا ، ستجده فى الحالة الثانية قد أخذ معنى جديداً واكتسب وظيفة جديدة .

الآداب – العدد السادس – حزيران (يونيو) ١٩٦٠ – مع الأدباء : أجرى الحديث فاروق شوشة ، ص ١٩ .

فى الرواية والذى يتركز فى مواجهة البطل للمجتمع وبصفة خاصة لارتباط هذا الحدث بالبطل :

ولقد حرص نجيب على أن يبرز التفاعل بين الحياة الوجدانية الداخلية للبطل وبين الطبيعة الخارجية ، وكيف له بمقاومة الجوع الذى بات يهدد جسده وعقله ! ... هـــل من دليل على حقارة الإنسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته أيكون هذا الطعام الذى يقتلع من الطين ويسمد بالقاذورات زبدة الحياة وقوامها ؟ وعماد التفكير ؟ والمبدع الحق للمثل العليا ؟ أليس هذا دليلا على أن جوهر الإنسان قذارة وحقارة ! وحث خطاه وكانت الرياح لاتزال تزمجر كاسرة والسماء تتلبد بالسحاب المظلم ، ومياه النيل الزمردية تصطخب وتعربد ، فألقى على ما حوله نظرة غاضبة ، وبصق على الأرض باحتقار كأنما يناصب الدنيا العداء » (٧٨) . كان هذا الموقف إبان بحثه عن ثمن كتاب اللاتينى أما بعد تخرجه فتساءل فيما يشبه التحدى للأيام وكأنها خصمته وحده بالحرمان والجوع هكذا تخيل . « ترى لماذا لايستقيم له أمر ؟.. لماذا لا ينال حظه من السعادة والطمأنينة ؟ لماذا يرصده الجوع كأنما لا يجد فريسة سواه ؟ .. الدنيا جميعا فرحة لا تأبه له . هذه حديقة الأورمان مجمع أفراح الإنسان والحيوان والنبات ... أيموت جوعا فى هذه الدنيا ؟ (٧٩)

أما بقية الشخصيات فلم يطلعنا نجيب على جوانب حياتها النفسية والوجدانية وإنما أبرزها لنا ابرازا عقليا خالصا مثل شخصية «مأمون رضوان» رمز الإيمان وشخصية على طه الاشتراكى . وإن كان مفهوم على طه عن الاشتراكية مفهوما غريبا (٨٠) . يقتصر على الاصلاح الاجتماعى . وغاب عن ذهنه أن الحرية السياسية هى نقطة البدء فى الإصلاح الاجتماعى . وضمان كفالة واستمرار مستوى متوازن من الحياة المادية للفرد . إن القضية الوطنية هى الوجه الآخر للقضية الاجتماعية ، وما هكذا فهم على طه جاء نموذجا للاشتراكى الطوباوى .

(٧٨) الرواية : ص ٦ .
(٧٩) الرواية : ص ٨١ .
(٨٠) الرواية : ص ٨١ .

ومن ثم فهاتان الشخصيتان يمكن أن ننظر إليهما بوصفهما رمزاً أو « ملامح فكرية عامة تتبينها من الخارج أكثر منها شخوصا حية نلمس حياتها الباطنية الفنية، ولعلنا نستثنى من هذا خطيبة إحسان زوجة محجوب إسما وعشيقة الوزير فعلا ، فلقد اعتنى نجيب محفوظ بإبراز بعض جوانب داخلية فى بنائها النفسى . والحقيقة أنه يغلب على بنائه للشخصيات فى هذه الرواية الاتجاه الطبيعى ، لا بمعنى التصوير الفوتوغرافى كما يفهم خطأ من هذا التعبير ، وإنما بمعنى الاستقصاء الدقيق والتحليل التفصيلى لمختلف تلك الشخصيات . وبيان الأسباب والعلل النفسية والاجتماعية وراء مسلكهم وشخصياتهم : (٨٢) .

وكما بدأت الرواية بثنائية فكرية بين اليمين واليسار فأنها انتهت كذلك بالثنائية نفسها . ومن المؤكد أن مأساة محجوب تنبع من انتمائه إلى اليمين أو اليسار . تنبع من انتهايته .

---

(٨١) راجع صفحة ٨ من هذا الفصل.

(٨٢) محمود أمين العالم : المعمار الفنى ... ص ٥٦ .

بداية ونهاية(*)

« أحب أن أفكر طويلا فى هذه الأمور المعقدة .
إنى أشعر بمرض من نوع جديد ، أين الداء ؟ أين الخطأ ؟
أين العلاج »

حسنين الرواية (٢٥٠)

فى ختام الرواية يناجى حسنين بطل الرواية نفسه « قصتى على . كنا جميعا فريسة للشقاء فما كان ينبغى لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه . ماذا فعلت ؟ إنه اليأس الذى فعل ، ولكنى قضيت عليها بالعقاب الصارم . أى حق اتخذت لنفسى ! . أحق أنى الثائر لشرف أسرتنا ؟! إنى شر الأسرة جميعاً حقيقة يعرفها الجميع ، وإذا كانت الدنيا فبيحة فإن نفسى أقبح ما فيها . ما وجدت فى نفسى إلا تمنيات الدمار لمن حولى فكيف أبحت لنفسى أن أكون قاضيا وأنا رأس المجرمين ! لقد قضى على » . . طالما أحببت أن أمحو الماضى ، ولكن الماضى التهم الحاضر ، ولم يكن الماضى المخيف إلا نفسى . لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء ؟ لا أستطيع . كان ينبغى أن أحب الحياة إلى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن فى طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه »(٨٣) .

فما هى مشكلة حسنين؟! وما هى الأمور المعقدة التى شغلت حياته ؟ . سنحاول أن نعايش البطل وقائع حياته . ومن خلالها تبرز المشكلة التى انتهت بتداعيه .

— ١ —

تبدأ بداية ونهاية : بالموت وتنتهى كذلك بالموت . ومن ثم فالقارىء

(*) ظهرت الطبعة الأولى للرواية سنة ١٩٤٩ ، والطبعة التى اعتمدت عليها الطبعة الرابعة سنة ١٩٦١ .

(٨٣) الرواية : ص ٣٨١ .

يشعر بظل المأساة يثقل أنفاسه وهو يتابع مصاير شخصيات الرواية وسقوطهم، ونجيب محفوظ يصور هنا أثر كارثة شبيهة بما حلت بمحجوب عبد الدايم ، ولكنه هنا لايقتصر على شخصية واحدة بل يتناول أسرة كاملة تنتمى إلى البورجوازية الصغيرة . فنحن نواجه بالموت فى بدء الرواية ونهايتها ، ونعيش مع شخصياتها فى مكابدتهم الحياة وسقوطهم كأوراق الخريف . فشخصيات الأسرة تتحرك وسط الأحداث وقد كتب عليها الشقاء والهلاك . ونجيب ينقلنا إلى عمق المأساة والكارثة التى حلت بالأسرة .« ياخراب بيتك ياأختى» صرخت بها الخالة وهى تهرول إلى الداخل فمزقت أستار الصمت الثقيل : فى هذا الجو نتعرف على شخصيات الرواية . « كان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض العلم فلم يداخله شك فى النهاية ، وسأل الله بقلبه أن يلقى أباه فى ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال من رضوان الله .

وأما حسنين فكان فى حيرة من كرب الموت لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكير ، وكان يسلم بالإيمان تسليما وراثيا لا شأن فيه للفكر ، وقد حملته أمه يوماً على أداء الفرائض فأداها دون وعى ، ثم هجرها فى شىء من التردد دون تكذيب أو زيغ . ولم تتسلط العقيدة على فكره ، ولم تشغل باله كثيراً ، ولكنه لم يجد نفسه خارجاً على حقائقها قط ، وقد دفعه الموت إلى التفكير ولكنه لم يطل به ، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة عاطفة حادة : « هل الموت هو النهاية؟ . ألا يبقى من أبى إلا التراب ولاشىء وراء هذا ؟ . معاذ الله . لن يكون هذا . إن كلام الله لا يكذب . ولبث حسن وحده لا يشغله شىء من هذه الأفكار ، ولم يستطع الموت نفسه أن يدعوها إلى رأسه . كأنه كان وثنيا بالفطرة . والحقيقية أنه لم يتأثر بأى نوع من التربية أو التهذيب . كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه فى ساعات الغضب ، وقد طبع على العبث . فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة ، وما أنفك يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته ، وهى الأثر الخفيف الذى علق بقلبه من وحى أمه ضاع فى خضم الحياة التى اكتوى بنارها . لذلك تاه به

الفكر فى وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظه وحظ أسرته منها »(٨٤) .

أما الأم فهى تدرك من هول الكارثة ما لايدركه أحد . انتهى زوجها ، وإنها لتتلفت يمنة ويسرة فلا تجد أحداً تعرفه إلا هذه الأخت التى لايعقد بها رجاء . لاقريب ولانسيب . ولم يخلف الراحل شيئاً . وهيهات أن تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفد فى ضرورات الأسرة . وقد وجدت فى محفظته جنيهين وسبعين قرشاً هى كل ما تملك من نقود حتى تنظم الأمور ؟ ورنا بصرها إلى حجرة الأبناء . اثنان فى المدرسة ، معفيان من المصاريف حقاً ، ولكن هيهات أن يغنى هذا عنهما شيئاً . أما الثالث ففى حكم الصعاليك ! وتنهدت من الأعماق . ثم حولت عينيها إلى نفيسه فتقطع قلبها ألما . فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب . وهذه هى الأسرة التى باتت مسؤلة عنها بلا معين . بيد أنها لم تكن من النساء اللاتى ينفضن همومهن بالدموع . كانت أرملة قوية ، ولكنها لم تملك اللحظة من الليل إلا اجترار الحزن والقلق »(٨٥) .

.. ولذا تواجه الموقف الصعب بحزم وساعدتها شخصيتها القوية على أن تصمد أمام الكارثة التى دهمت الأسرة . فتترك الشقة إلى البدروم كما تستغنى عن الخادم الصغيرة لتوفر أجرتها . وأصبحت نفيسة خياطة « شعرت بأنها تهوى من عل » وأنها أمست فتاة أخرى ، ليس بين الكرامة والضعة إلا كلمة . كانت فتاة محترمة فانقلبت خياطة . وأعجب شىء أنه لم يستجد جديد بالنسبة إلى العمل نفسه .. فالخياطة هوايتها .. أشد ما تغير شعورها . أحست بالخزى والهوان والضعة ، وتضاعف حزنها على أبيها .

ومضت تناجى نفسها « .. إن التعاسة تنفذ فى لحمنا كما تنفذ هذه الإبرة فى قطعة القماش ... حياة بغيضة مفجعة لا خير فيها . أبى ميت

---

(٨٤) الرواية : ص ١١ – ١٢ .

(٨٥) الرواية : ص ١٧ – ١٨ .

وأنا خياطة ، عما قليل تجيء صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زبونة ، كيف ألقاها ؟ بأى عين تنظر إلىّ »(٨٦) .

« ولم يخطر على بال الأبناء أن يعملوا بعد الظهر مثلا لزيادة دخل الأسرة ولا على بال الأم سواء وهم فى مرحلة الدراسة أو بعد الوظيفة فى حين أنهم يستنكفون لعمل أختهم خياطة ويكرهون المجاهرة بذلك ، يقبلونه فى باطنهم فقط . لكنهم يستنكفون من العمل اليدوى .. أى أن أبناء البورجوازية الصغيرة لا يعملون إلا ذوى ياقات بيضاء ومن منهم لا يملك السلاح الذى يؤهله لوظيفة أى الشهادة والشفيع يسقط فى هاوية الإجرام ، وهذا بالضبط ما حدث لحسن ونفيسة »(٨٧) .

ويصور نجيب المشهد الذى ترى فيه الأسرة وهى مثقلة النفس فى فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة تعانى مرارة الإشفاق والشك « والتف به أخوه وأخته وأمه بقلوب خافتة ينبض فى أعماقها الأمل ويظللها الخوف والعذاب »(٨٨) . « . . . وكان على حسن أن يضحى بمواصلة تعليمه العالى حتى يقيم بناء الأسرة الذى إنهدّ بوفاة أبيه . ويناجى حسن نفسه « أسرتنا كادت تنسى معانى الارتياح والطمأنينة ها أنا أعيد إلى نفوسها بعض هذه المعانى . علام آسف ! مدرس أو كاتب سيان لو كنا نقتصد فى أحلامنا أو كنا نستلهم الواقع فى خلق هذه الأحلام ، لما ذقنا طعم الأسف أو الخيبة »(٨٩) .

وهو بهذه الكلمات يعرى نفسه عما يشعر به من أسى لعجزه المادى عن مواصلة تعليمه ، وإن متاعب الأسرة تتلاحق بحيث لا تدع لهم وقتاً للتفكير فى الحزن وعلى حد تعبير حسين « ليس الفراق شر ما فى الموت . إن الفراق

(٨٦) الرواية : ص ٤٩ .
(٨٧) د. فاطمة موسى : نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية ، الكاتب ، يوليو ١٩٦٨ ص ٨٩
(٨٨) الرواية : ص ١٧٦ .
(٨٩) الرواية : ص ١٧٩ .

حزن المطمئن »(٩٠) وكأن الحزن ترف بورجوازى يصيب الطبقة العليا . أما البورجوازية الصغيرة فإن فرط المصائب التى تحاصرهم لاتدع لهم وقتاً لمجرد التفكير فيه . فليس حزنهم « اغريب الأبوين » :

* * *

وعندما ذهب الشقيقان — حسين وحسنين إلى فيلا أحمد بك يسرى ليتوسط لهما من أجل تعيين حسين نلمح لهفة حسنين إلى الحياة الارستقراطية «ودخلا يسيران فى ممشى الحديقة الوسط وهما ينظران إلى شتى الأزهار التى كست الأرض بألوان بهيجة بدهشة ، صعدا إلى السلاملك ، ثم إلى بهو الاستقبال الكبير ، واتخذا مجلسهما بارتباك على كثب من الباب بالموضع الذى اختارته أمهما قبل ذلك بعامين . وجرى بصرهما سريعاً على البساط الغزير الذى يغطى أرض الحجرة الواسعة ، والمقاعد الكثيرة الأنيقة ، والطنافس والوسائد ، والستائر التى تنهض على الجدران كالعمالقة ، والنجفة المتدلية فى هالة لألاءة من سقف عال انتشرت بجوانبه المصابيح الكهربائية (وأشار حسين إلى النجفة وقال بسذاجة : — مثل نجفة سيدنا الحسين)(٩١) — ويلقى نظرة ذاهلة على ما يحيط به من آى الثراء — فيقول لأخيه حسين :

— يجب أن نكون جميعاً أغنياء .

— وإذا لم يكن هذا ؟ !

فقال بحنق :

— إذن نثور ونقتل ونسرق»(٩٢) وهو يتذمر من واقعة الهابط : « أيقنت

---

(٩٠) الرواية : ص ٣٧ .

(٩١) الرواية : ص ١٨٠ . ونلمح أزمة البورجوازية الصغيرة فى الرواية الرائدة لطاهر لاشين (حواء بلا آدم) نقرأ انطباعات حواء بعد زيارة « رمزى » إبن اللواء نظيم باشا لمنزلها « دوت فى خاطرها مقارنة بين البيتين ، وبين الأهلين ولأول مرة فى حياتها تبينت أن جدتها يجب أن تكون أحسن مما هى عليه مظهراً .. والحاج إمام .. أواه لو دخلا وكان بقميصه وسرواله يتوضأ فى صحن الدار » طاهر لاشين « ، حواء بلا آدم ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٣٤ ، ص ٧٥ . ويبدو هنا الشعور بالفواصل الطبقية واضحاً ، وهذه الرواية من الروايات الرائدة التى عبرت عن أزمة البرجوازية الصغيرة .

(٩٢) الرواية : ص ١٨١ .

الآن فحسب ، وبعد أن تنسمت عبير الحياة الحقة فى هذه الفيلا ، إنه من الظلم أن نعد أنفسنا بين الأحياء »(٩٣) — ومضى يروح عما يعتمل فى صدره من تمرد وتطلع طبقى . فيقول لأخيه الذى يغبطه لاستكمال تعليمه :

« ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك ؟ . . إن لنا حقوقاً بديهية — ولا يجوز أن يضيع شىء منها ، فأين نحن من هذا ؟ . كيف نعيش ؟ . . ماذا تكابد أمنا ؟ . . أين أخونا حسن ؟ . . كيف انقلبت أختنا خياطة ؟ : : وقطب حسين وقد تنغص عليه صفوه وتنامى جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حانقاً ، وصاح أخيه فى لهجة تهم على العتاب :

— خياطة . . .

فقال حسنين فى هياج وانفعال :

— نعم خياطة ، هل تكره هذا حقاً ؟ . . أتتمنى حقاً لو كانت تزوجت كأمثالها من الفتيات ؟ ! اكذب . لو كانت تزوجت ، بل لو لم تكن خياطة لاضطر كلانا إلى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة . هـــذه هى الحقيقة :

واشتد الغضب بحسين ، لا لأنه لا يسلم بما قال أخوه ، ولكن لأنه يسلم به فى أعماقه ، ولأنه ما كان يرحب حقاً بزواج الفتاة وسعادتها ، وهو يقول لنفسه « إننا نأكل بعضنا بعضاً ، وينبغى أن نسر بتهريج حسن وعبثه ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف . وينبغى أن نسر بأختنا الخياطة مادامت تعد لنا لقمتنا الحافة . وهذا الشاب المتذمر ينبغى أن يسر بانقطاعى عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو . . . أى حياة ! لعلى لا أجد إلا عزاء واحداً وهو أن قوة أكبر منا جميعاً تطحننا طحناً وتلتهمنا التهاماً ، وأننا نصمد ونقاتل » (٩٤)

على أننا نلمس فى حديث حسنين بعض الوعى بالمشكلة الاجتماعية على أساس أنها مرتبطة بالمشكلة السياسية « لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبى بلا معين ! »(٩٥) .

---

(٩٣) الرواية : ص ١٨٣ .

(٩٤) الرواية : ص ١٨٤ .

(٩٥) الرواية : ص ١٧٦ .

إنه هنا يشعر بالمشكلة الاجتماعية التى تعتصر مجتمعه ومدى تأثير الاستعمار على البلدان المتخلفة والمرتبطة اقتصادياً وسياسياً بفلكه . وواضح أن وعيه مستمد من طبيعة المشكلة التى جابهت أسرته وتأثير تلك المشكلة على الحياة المترفة نسبياً التى درجوا عليها ، وإن كان هذا الوعى لم يرتفع به إلى مستوى المشاركة فى التخفيف من أعباء الأسرة بل دفعه إلى مزيد من الأنانية والمغامرة بمستقبل حقيقه حسين .

* * *

إن أبناء البورجوازية الصغيرة يظهرون مالا يبطنون . فهم مستنكفون أن تعمل أختهم خياطة وفى الوقت نفسه يشعرون فى أعماقهم بالحاجة إلى مساهمتها فى معيشتهم ويعترفون بأنه لولا عملها خياطة لانقطعوا عن التعليم . ولم يفكر واحد منهم فى طرق أبواب العمل الشريف . لدرجة أن نفيسة نفسها شعرت فى أعماقها بالضعة لامتهانها الخياطة . هنا تتراءى لنا صفة من صفات البورجوازية المصرية الصغيرة التى تحاول أن تعتصم بالعمل البيروقراطى ويصدق عليها المثل الشعبى « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » . وقد سقط حسن ونفيسه الحضيض لحرمانهما من التعليم والشفيع : لفقرهما فحسن « . . لماذا لايبحث جادا عن عمل ؟ جرب حظه مرتين فانتهى فى كل مرة بمعركة كادت تؤدى به إلى السجن : كلا ، ليست هذه الأعمال التافهة يبتغاه . ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكع والمغامرة الخطيرة . . . حياة شاقة محفوفة بالمخاطر فى سبيل قروش ، كيف يستنيم إلى هذه الحياة . لم يكن سعيداً ولا راضيا ؛ ولكنه كان ينتظر معجزة تنتشله من وهدته إلى حلم من الأحلام . . . فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعا بسيطا أو عاملا مطيعا ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمه إلى جده ، ولا تزال تطن فى أذنيه شكاتها المكروبة ، تطارده كلما أفاق إلى نفسه . أنه يحب أمه ويحب أسرته ولكنه ينتظر ، وينتظر دون أن يحرك ساكنا ، لاأزال فى البداية ، عمل حيوانى طويل بقروش ، حماقة خير منها »(٩٦) فهو يؤثر حياة البلطجة على حياة العمل اليدوى .

* * *

(٩٦) الرواية : ص ١١٨ .

وعند صدور قرار تعيين حسين بطنطا أرسل بصره من نافذة القطـــار، ورأى الأرض المنبسطة ، الصامتة ، الصابرة ، الخيرة ، فيتذكر دون وعى أمه كهذه الأرض الخضراء صبرا وجودا والدهر يحرثها بسنانه ! لم يعد بوسعها أن تقوم بزيارة محترمة لأنها لاتجد الثياب اللائقة ! » .. وعاد حسين يناجى نفسه : « يالعجب . إن مصر تأكل بنيها بلا رحمة . ومع هذا يقال عنا أننا شعب راض هذا لعمرى منتهى البؤس ، أجـــل غاية البؤس أن تكون بائسا وراضيا . هو الموت نفسه . لولا الفقر لواصلت تعلمى هل فى ذلك من شك؟ ، الجاه والحظ والمهن المحترمة فى بلدنا هذا وراثية . لست حاقداً ولكنى حزين ، حزين على نفسى وعلى الملايين ، لست فردا ولكننى أمة مظلومة وهذا مايولد فى روح المقاومة ويعزينى بنوع من السعادة لا أدرى كيف اسميه . كلالست حاقداً ولا يائسا أيضا . وإذا كانت فرصة التعليم العالى قد أفلتت من يدى فلن تفلت من يد حسنين ، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب . سوف تردالروح إلى أسرتنا فنذكرا أيامنا السود بالفخار » (٩٧) .

فى هذا المشهد النفسى نلاحظ أن نسيج الأحداث يتسع ليتجاوز المشكلة الخاصه للأسرة إلى مشكلة المجتمع . مشكلة مجتمع مطحون . يفتقد العـــدالة الاجتماعية . إنه يحس أنه صورة مصغرة من مجتمعه المطحون . غير أن روح المقاومة التى تولدت فى نفس حسين لم تتجـــاوز قراءات فى الاشتراكية لمكدونالد . وهو يرحب بالنظام الاشتراكى لأنه لايتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق . « كان فى وحدته وضيقته يسعد بأحلام الإصلاح ويتخيل مجتمعاخيراً من المجتمع الذى يعيش بين أحضانه وحالا خيراً من الحال المقدورة له وأسعده الأمل فى إمكان تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التى أشرب حبها والإيمان بها منذ طفولته » (٩٨) فروح المقاومة لم تتعد النظر إلى المحاولة الإيجابية للتغيير الاجتماعى . فهنا نلاحظ أن الوضع الاجتماعى لأسرة حسين هو

---

(٩٧) الرواية : ص ١٩٩ .

(٩٨) الرواية : ص ٣٠٢ .

الذى حدد وعيه الاجتماعى . وإن كانت الاشتراكية التى آمن بها اشتراكية طوباوية وليست اشتراكية علمية .

وبعد عودة حسين من طنطا ، جلس فى بيته واستقرت عينه على «جاكتة حسنين المعلقة بالمشجب فنظر إلى النجمة طويلا . سيرقى حسنين عاما بعد عام حتى يصير ضابطاً عظيما على حين يبقى هو كاتبا فى الدرجة السابعة — أو السادسة على أحسن فرض — طوال مدة خدمته .على أنه لم يجد أى أثر لشعور الحسد أو الحنق ، كان أبعد ما يكون عن هذا ... ولكنه وجد نفسه يتأمل ... الفوارق التى تفصل بين الناس عامة »(٩٩) وهكذا يعيش حسين وهو مطحون فى غمار المجتمع. هناك وشائج قربى بين حسين وأحمد عاكف فى خان الخليلى .كلاهما ضحى من أجل أسرته . وكلاهما رمز لفئة عريضة فى المجتمع المصرى ، فئة صغار الموظفين المطحونة فى قاع المجتمع .

ونجيب محفوظ يحرص على إيراد التفاصيل الدقيقة ، وينسج الحوادث الصغيرة ، ويصور من خلالها استجابة كل فرد من أفراد الأسرة لهذه المحنة كل حسب شخصيته ، فالفعل هنا نابع من الشخصية فى حالتهم جميعا(١٠٠)

— ٢ —

بعد حصول حسين على البكالوريا تركز أمله فى الالتحاق بالكلية الحربية، والواقع أنه كان يندفع فى حيوية هائلة نحو الأمل الذى ركز فيه حياته جميعا ، فإما الحربية أو الموت . وكان طموحه إلى الحربية يتفجر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة على تعاسة حياته وضعتها ، وبدت الكلية لعينيه كمصنع سحرى قادر على تحويله من إنسان مهزول إلى ضابط مرموق فى ظرف عامين وبأقل جهد »(١٠١) .

وذهب إلى فيلا أحمد بك يسرى ليتوسط فى إلحاقه بالكلية الحربية ،

(٩٩) الرواية : ص ٣٠٦ .
(١٠٠) د. فاطمة موسى ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .
(١٠١) الرواية : ص ٢٥٢ .

وردد على خاطره هذا السؤال « هل يمكننى أن اقتنى يوما فيلا كهذه ؟ » وتخيل الحياة فيها مابين المخدع والحديقة وما يتبعهما عادة من سيارة وأسرة محترمة . هذه هى المرة الثانية التى يزورها فيلا أحمد بك يسرى وفى كلتا المرتين انفجر فى صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على متع الحياة النظيفة المحترمة . وكان أخوف ما يخافه أن ينحصر فى حياة كحيـــاة حسين ينقطع عمره ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر . فى الحياة متع عالية وهواء نقى وينبغى أن يأخذ نصيبه منها كاملا » (١٠٢) .

وعندما يرى كريمة أحمد بك يسرى تثير فى نفسه اللهفة على الحياة الراقية. « **ما أجمل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة . ليست شهوة فحسب لكنها قوة وعزة . فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدى فى تسليم مسبلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بى قائلا : « سيدى » . هذه هى الحياة إذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها** » (١٠٣) فـ « ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسى ولكنه غزو كامل وفتـــح مظفر »(١٠٤) و « راح يستحضر صورة بهية ، ويعرض الصورتان جنبا إلى جنب خيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجمل من فتاته ، ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن بهية (خطيبته) جمال جامد وهذه جمال متحرك ، كأنما يبعث فى النفس حرارة ويشيع فى الخيال حياة . وليس هذا فحسب فإنها تمثلت لعينيه الطموحتين كرمز حى للدنيا الراقية التى يتطلع اليها بشغف جنونى . **لم تكن فتاة بقدر ماكانت طبقة وحياة** »(١٠٥) وبهية فى نظره أشهى وقد استكنت فى قلبه وقبضت على جذور غرائزه وأعصابه ، ولكن كريمة أحمد بك يسرى تخاطب طموحه الذى لا يحد . وقد اكتشف حسنين جانبا من نفسه كان غامضا وهو أنه

---

(١٠٢) الرواية : ص ٢٤٤ .
(١٠٣) الرواية : ص ٢٤٥ .
(١٠٤) الرواية : ص ٢٨٥ .
(١٠٥) الرواية : ص ٢٧٥ .

« يؤثر فى اعماقه الطموح على السعادة والسلامة ! » (١٠٦) .

وقـــد حرص نجيب على أن يعمق من تصوير بشاعة الفقر فى التكوين النفسى لشخصياته عن طريق المشاهد المتقابلة . إذ أن هذا التقابل يجسد الشعور بالفوارق الطبقية . فالفقير لا يعى حقيقة وضعه الاجتماعى إلا إذ اطلع على جانب من حياة الأغنياء . ولنذكر هنا زيارة الأم لفيلا أحمـــد بك يسرى لطلب مساعدتها فى سرعة إنجاز إجراءات صرف المعاش . سألها البك إن كانت فى حاجة إلى مساعدة عاجلة .. ولم تكن تملك سوى جنيهين هما ما تبقيا من المبلغ الذى وجدته بمحفظة الأب - وعقل الحياء لسان الأم فلم تفصح عن حاجتها إلى النقود وهى فى مسيس الحاجة . أما البك فقد كان يضايقه أن يأخذ بيده هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة . ولكنه كان على استعداد للبذل لو سألته المرأة إياه ... ولكن نيته صدقت على السعى لخدمة هذه المرأة حتى يصرف لها المعاش ، إكراما لذكرى الراحل ، وتفاديا من التورط فى مساعدتها » (١٠٧) وقد سبق أن تكرر هذا المشهد فى القاهرة الجديدة أثناء زيارة محجوب لفيلا حميدس بك . ونجيب محفوظ هنا يغمز من طرف خفى البرجوازية الكبيرة فى بخلها وحرصها . ولنذكر ملاحظة كمال عبد الجواد عن آل شداد وروحهم الاقتصادية فى الثلاثية .

إن التقابل بين الحياتين يعمق من خلفية المشهد الذى يصور بشاعة الفواصل الطبقية التى تكاد تشطر البشر إلى قسمين لا يصل بينهما إلا خيط واه لا يكاد يرى . طبقة أحرص ما تكون على الحياة بكل زخرفها وزينتها ، وطبقـــة تكافح طول يومها لكى تصل يدها إلى فمها .

وإن العلاقة بين البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الكبيرة تسير فى خطين متوازيين كل منهما يحيا حياته الخاصة فى عالمه المحدود بحدود طبقته . والالتقاء بينهما يتخذ مظهرين : الأول للشفاعة (فيلا حمـــد يس بك فى

(١٠٦) الرواية : ص ٢٧٥ .
(١٠٧) الرواية : ص ٢٨ .

القاهرة الجديدة وقيلا أحمد بك يسرى فى بداية ونهاية) من أجل سد رمق البورجوازية الصغيرة التى تكاد أن تموت من الإملاق . والمظهر الثانى يتمثل فى الاغتصاب الجنسى « إحسان شحاته وقاسم بك فهمى فى القاهرة الجديدة) والمظهران وجهان لحقيقة واحدة هى انعدام العدالة الاجتماعية فى مجتمع يتحول فيه الحق إلى منحة وشفاعة ويصبح الشرف قيداً لا يقل إلا سلم البناء الاجتماعى فى مجتمع يتحول فيه الحق إلى منحة وشفاعة ويصبح الشرف قيداً لا يغل إلا أعناق الفقراء فقط » ولقد كان « الجمال » هو شفيع إحسان . ورغم سقوطها فقد ظفرت بزوج انتهازى عريق » . أما نفيسة فهى فتاة فقيرة بلا جمال ولامال ولا أب فعند سقوطها يكون مصيرها الموت . وهما معاً — إحسان ونفيسة — يكملان المأساة ويدينان الفقر أبلغ إدانة .

ونحن لانكاد نلمح صراعا بالمفهوم الماركسى للصراع الطبقى(*) فليس فى الرواية صراعاً بين البروليتاريا والطبقة الرأسمالية بل نجد صراعاً بين البورجوازية الصغيرة ، وهى الطبقة المسحوقة فى المجتمع والتى تعانى من الإملاق وبين ظروفها الاجتماعية الهابطة والناجمة عن النظام الاقتصادى والاجتماعى الرأسمالى شبه الإقطاعى . نجدها تتشبث بالبيروقراطية ، تتمرغ فى الميرى وترابه ، وتتلهف على المركز الاجتماعى الذى ينتشلها من السفح « حسن ، حسنين » وتؤثر البلطجة على العمل اليدوى الشريف « حسن » وقد تنحرف وتسقط فى هاوية الدعارة « نفيسة » .

* * *

ويتلهف حسنين بعد تخرجه على أن يمحو الماضى من صفحة الوجود . إذ أصبح بالنسبة إليه شبحا يطارده وأخوف ما يخافه كرامته فهو يخشى عليها من زملائه ويود أن يسدل على هذا الماضى ستاراً كثيفا بينما أمه تدعوه أن يتجمل بالصبر غير أنه يلتهب غيظاً « لم أكن ضابطاً أما الآن فقد أصبحت سمعتى مهددة ! ... ينبغى أن يتغير كل شىء حتى قبر والدنا المكشوف بين قبور الصدقة . تصورى ماذا يظن بنا زملائى لو علموا بمكانه » .

(*) راجع المدخل عند الحديث عن الطبقة والطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى .

والواقع أن حسنين متمرد على واقعه ، فهو لم يتغير نتيجة لتغير مركزه الاجتماعي . فمنذ أن تعرفنا عليه وهو فى المدرسة التوفيقية عقب وفاة أبيه وهو برم بحياته ، أكثر إخوته إحساساً بوطأة الفقر وأكثرهم أنانية وفردية . ولنذكر هنا مشاعره عند اقتراب موعد الجنازة فقد «بلغ الاضطراب بحسنين مداه ، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه . كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو . . . وهو يرى « فى هذا القبر المغمور فى العراء رمزاً لضياعهم المخجل فى هذه المدينة الكبيرة »(١٠٨) وعندما اشتغلت اخته خياطة قال ساخطاً « لن تكون اختى خياطة ، كلا ، ولن أكون أخا لخياطة »(١٠٩) لكنه شخص لا يعول على ما يقول . كنا نتوقع منه أن يطرق أبواب العمل لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . غاية مايفعله هو التذمر . وهو يقر فى باطنه بأنانيته وفرديته لكنه فى الظاهر يحاول أن يبدو فى مظهر الشاب الغيور على مظهر الأسرة . إنه يريد من حسن أن يبدأ حياة جديدة شريفة لكن يقول بسخرية :

« — بفضل حياتى غير الشريفة أمكننى أن أدفع عن أسرتنا غائلة الجوع ، وأن أزود أخاك حسين بما كان فى حاجة إليه كي يباشر عمله الحكومى ، وأن أهيىء لك قسط المصروفات الذى جعلك ضابطاً » لكن حسنين يعبره بحياته الشائنة فيرد عليه « حياة شريفة لاتعد هذه العبارة على مسمعى فقد أسقمتنى . ميكانيكى بقروش معدودات فى اليوم ، أهذه هى الحياة الشريفة ؟ ! . . السجن أحب إلى منها ! ولو اننى استمسكت بها طوال حياتى لما حليت كتفك بهذه النجمة . أتحسب أن حياتى وحدها غير الشريفة ؟ . . . حياتك أنت أيضاً غير شريفة ، فهذه من تلك . . . ومن العدل إذا كنت ترغب حقا فى أن أقلع عن حياتى الملوثة أن تهجر أنت أيضاً حياتك الملوثة ، فاخلع هذه البدلة ولنبدأ حياة شريفة معاً ؟ . . .

---

(١٠٨) الرواية : ص ١٦ .

(١٠٩) الرواية : ص ٢٤ .

ـ أرأيت أنك تؤثر النجمة على الحياة الشريفة ؟!! . ولست ألومك فأنا مثلك أؤثر رزقي على الحياة الشريفة (ثم ضاحكاً) . . نحن شقيقان ويجري في عروقنا دم واحد ! » (١١٠) ومن المفارقات المرة أن استطاع حسن الشريد أن يخلق من العدم حياة أخوين ، من فيض حياته الآثمة الهابطة(١١١) .ليس هذا فحسب ، بل إنه أراد أن يقطع كل علاقة تربطه بالماضي وبعطفة نصر الله ، ولو كان في تلك العطفة حب قديم ؟ حب قضى بين أحضانه أجمل أيام العمر . حبه لبهيه . وذلك من أجل الاقتران بكريمه أحمد بك يسري . لكنه بعد أن فشل في الاقتران بها « بدأ يفكر طويلا في هذه الأمور المعقدة. بدأ يشعر بمرض من نوع جديد لكنه لم يستطع أن يحدد مكمن الداء والخطأ والعلاج »(١١٢) وما هذا المرض سوى الفواصل الطبقية الصلبة التي لم يستطع اجتيازها . كما أنه ـ كما سيتبين لنا من موقفه مع شقيقته نفيسة ـ لم يستطع أن يبني أخلاقيات الطبقة المترفة وأسلوب حياتها إذ أثبت أنه لاشعوريا ـ مرتبط بجذوره الشعبية فالموت تكفيراً عن الخطيئة ـ هو مفهوم ألصق بالطبقات الشعبية ، بالبورجوازية الصغيرة .

إن صديقه البرديسي يعزيه بأن « الفقر ليس جريمة » ولكنه هو نفسه موقن أن الفقر أكبر الكبائر . « أخ قاطع طريق وأخت خياطة . عاملة ، هه ، ويريد أن يتزوج كريمة بك قد الدنيا ! »(١١٣) إنه هنا يجسد طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع الرأسمالي شبه الاقطاعي مثل المجتمع المصري . فمن المتصور أن مشكلة حسنين العاطفية ومنزوعة إلى طبقة أعلى من طبقته الاجتماعية ، لن يكون لها وجود في مجتمع اشتراكي قائم على التقريب بين الفواصل الطبقية أو على أقل تقدير ستكون هناك معايير أخرى تتصل بشخصية

---

(١١٠) الرواية : ص ٢٩٥ .

(١١١) أنور المعداوي : نماذج فنية من الأدب والنقد ، لجنة النشر للجامعيين ، ١٩٥١ ص ١٩٣ .

(١١٢) الرواية : ص ٣٥٠ .

(١١٣) الرواية : ص ٣٤٥ .

المحب الاجتماعية وليس لوضعه الاجتماعي الطبقي . ومن المحتمل أن الحياة المترفة التي يتآكل قلبه مرة عليها والتي يتخذ من الجنس ساما يرتقيها ستغير مدلولها ومن ثم فإن موقفه من بهية أو كريمة الباك سيتحدد بناء على قيم أخرى تنبع من الشخصية أساساً ، من التكوين النفسي والدور الوظيفي في المجتمع – من كفاحهما المشترك من أجل مستوى مادي أفضل في ظل مجتمع يسوده بقدر الإمكان مساواة في الفرص .

* * *

ويدق الباب في شقته بمصر الجديدة . وتتجمع نذر الشر في سماء حياته. لقد تصور أن الحياة قد طابت له وأن حسن الباطجي قد اختفى من حياة الأسرة . لكنه يدخل محمولا بعد أن غدرت به عصابة مخدرات « قضى علينا ، قلبي لا يكذبني على الأقل في الشر ، قضى علينا في مصر الجديدة كما قضى علينا في شبرا سيطاردنا البوليس جميعاً كالمجرمين . أكاد أرى بعيني رأس المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقي القبض على المجرم الهارب هل سدت منافذ الحياة ؟ أتقول إنه أخي أجل إنه أخي ، أجل إنه أخي ، ولكنها حياتي هي التي تتحطم تحت قدميه في طريقه الوعرة »(١١٤) .

ونصل إلى ذروة المأساة عندما يستدعيه ضابط بوليس السكاكيني . ذهب وهو مهيأ أن يكون محور حديث الضابط بشأن أخيه . وتكون المفاجأة عندما يخبره أن الأمر يتعلق – بأخته وليس بأخيه – بعد أن ضبطت في بيت من بيوت الدعارة بالسكاكيني :

ومن الأمور ذات الدلالة أن الضابط يدعوه أن يتماسك « أرجو أن تساعدني على القيام بواجبي ولا تجعلني أندم على ما اتخذت من إجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل شيء(١١٥) وهو – حسنين – كان من الماضي ويهرب منه حفظاً لكرامته وسمعته ومستقبله فإذا – بالماضي – وكأنه ينتقم لنفسه لتجاهل حنين له – يطعنه طعنة نجلاء في صميم كرامته :

(١١٤) الرواية : ص ٣٥٥ .

(١١٥) الرواية : ص ٣٦٥ .

فى شرفه . فيلتهم الحاضر والمستقبل معاً . وهنا تتفق نهايته مع نهاية سلفة مفجعا . وهنا تأتى « كلمة الكرامة » مفعمة سخرية ومرارة ، تقطر أسى محجوب . نسى حسنين كما سبق أن نسى محجوب أيضاً أن الماضى يستمر معنا. هو ما ضينا . وهل ماضينا ملك لنا ! ؟ إن من يتخلى عن ما ضيه كمن يقطع جذور شجرته بيده . إن هذا الماضى يقول لنا الكثير ويشى بالكثير : إن الفقر وإن كان آفة إلا أنه ليس مما يشين الإنسان ولكن الجرى وراء المظاهر الخادعة وعدم الالتفات لسر البلاء : « الفقر » هو المعيب للكرامة ، المخل بشرف الإنسان . وقد جاء التجاهل فى صورة مجسدة : سقوط نفيسه . وهنا بدأ حسنين يفيق من الإغماء الطبقى الذى غشى عينيه « أحس فى نهاية المطاف بإستحالة القضاء على الماضى أو التجرد منه عندما قال « طالما أحببت أن أمحو الماضى — ولم يكن الماضى المخيف إلا نفسى . . وتلك هى الحقيقة التى تخبط حسنين فى الاستدلال عليها ، ولعله أراد أن يدفع عن نفسه تهمة الجهل بهذا القول « فى طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه » . . . لقد قضت المأساة على أحلام حسنين ، مأساة الفشل فى القضاء على الماضى ووأده وعدم مواجهة الواقع وجهاً لوجه »(١١٦) وبهذا المعنى تكون مأساة حسنين هى فى عمق مدلولها تتكثف فى تجاهله لهذا الماضى المتمثل فى الفقر وفى عدم تفكيره فى الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى تحكم البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى اللهم إلا إشارته إلى أثر الاستعمار فى الشعوب المقهورة كمصر . إن هذا الوعى الاجتماعى هو ما يفتقده حسنين وأيضاً محجوب . كلاهما لجأ إلى الحلول الفردية فاحترق لأنه خرج عن نطاق الجاذبية الذى يشده بطبقته وتمرد على جذوره الشعبية . كلاهما هرب من طبقته ولم يحاول فهمها .

مشكلة البطل فى بداية ونهاية :

وهناك مشكلة آثرت أن أبقيها حتى أفرغ من عرض الوقائع الرئيسية

(١١٦) إبراهيم الناصر : حسنين ذروة المأساة بداية ونهاية ، مجلة الشهر ، فبراير ١٩٦١ ، ص ٤٢ .

فى الرواية ، أعنى مشكلة البطل . يقول د . عبد العظيم أنيس إنه من الصعب أن نرى فى حسنين « البطل الرئيسى أو المحورى لرواية بداية ونهاية إذ أن حسن لايقل بطولة عن حسنين فى الرواية »(١١٧) .

أما د . فاطمة موسى فتقول « . . . وليس فى الرواية بطل بالمعنى المفهوم ، حقا إن الشقيقين حسين وحسنين يحتلان مكان الصدارة ولكن هذا لا يعنى أن أيا منهما يقوم بدور البطولة . والحدث هنا يؤثر فى الشخصيات جميعاً لا فى فرد واحد ، ففى القاهرة الجديدة لايؤثر الحدث فى الشخصيات الثانوية فهم يقفون فى الرواية موقفاً ثابتاً ، مجرد أقران للبطل يمكننا أن نقارن بينه وبينهم . أما فى بداية ونهاية فإن الحدث يشمل الجميع ، ونحن إذ نقارن بين شخصيات الأشقاء الثلاثة نفعل ذلك فى حدود تأثرهم بالحدث »(١١٨) فكلا الناقدين يميل إلى نفى وجود البطولة الفردية الإنسانية : وربما اقترب أنور المعداوى من المضمون التجريدى للبطولة . إذ ينتفى عنده أيضاً البطل الإنسانى فى الرواية ولكنه يركز على الفقر بوصفه محركا للسلوك الإنسانى لشخصيات الرواية . وهذا ما نشتمه من كلامه حين يقول : « . . . والفقر وحده هو المسئول عن البناء الذى تصدع والشمل الذى بدد . شمل الأسرة الكادحة التى كان للتضحية عند كل فرد من أفرادها طعم ومذاق . الأم ، وحسن ، وحسنين ، ونفيسة ، كل نموذج من هذه النماذج البشرية التى كونت الهيكل الإنسانى العام للقصة ، قد فهم التضحية فهما خاصاً ، وكانت له فيها وجهة نظر خاصة ، وجهة نظر حددت الطريق وقررت المصير . . كانوا فلاسفة الحياة فلاسفة أخضعوا الفلسفة لمنطق الشعور المحترق بلهب الحرمان ، حتى يخرج بعضهم من هذه الفلسفة وهو منحرف العقل مريض النفس ، والفقر وحده هو المحور الرئيسى الذى دار حوله السلوك الإنسانى »(١١٩) .

والواقع أن هذا التفسير الذى يستند إلى الفقر فى تفسيره للبطولة ، يقصر

---

(١١٧) د. عبد العظيم أنيس : فى الثقافة المصرية ... ص ١٧٣ .

(١١٨) د. فاطمة موسى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(١١٩) أنور المعداوى : المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

ما يخلق بحيث يقرب من التجريد ، بقدر ما يحدق ، عن طريق آثاره التى يتركها فى الحرمان المادى الذى تعانيه شخصيات الرواية — فى الواقع الاجتماعى . فنحن إذا أخذنا الفقر بوصفه البطل الفعلى فلا ننظر إليه بوصفه أسا للبلاء بل ننظر إليه فى إطار النظام الاقتصادى والاجتماعى المتحكم فى بناء المجتمع المصرى . بمعنى أن النظام الاقتصادى وعلاقات الإنتاج فى المجتمع المصرى هى المؤثرة فى السلوك الإنسانى للشخصيات فى الرواية وهى المفسرة أيضاً لتداعى الأبطال وتلاشيهم .

على أن ثمة سببا آخر دفعنى إلى اتخاذ « حسنين » بطلا للرواية . فليس من شك أنه نموذج بشرى دال على طموح البورجوازية الصغيرة والشبه بينه وبين محجوب عبد الدايم ليس بخاف على القارىء . فهناك وشائج قربى تصل بينهما . فهو يحمل كل أوهامها وفرديتها وعقدها . إنه نموذج للبطل الفردى الأنانى الذى ينشأ بين أحضان البورجوازية الصغيرة وسرعان ما يتمرد عليها بعد أن يتغير مركزه الاجتماعى يريد أن ينسى الماضى لكن الماضى يبتلع الحاضر والمستقبل ويتداعى البطل . إنه شر الأسرة كما اعترف هو نفسه . كل أعطى ما عنده لم يستبق شيئاً إلاهو أخذ ولم يعط . إنه نموذج البطل الشرير الفعلى فى الرواية .